



من كنوز الأستاذ سيد قطب







200 حكمة

كي نفهم الحياة

سيد حامد





دار اليقين للنشر والتوزيع



200 حكمة
كي نفهم الحياة



سيد حامد



اسم الكتاب: ٢٠٠ حكمة كي تفهم الحياة
المؤلـــــف: سيد حامد
الطبعة الأولى للناشر: ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م
تصميم الغلاف: عبد الرحمن مجدي
مقاس الكتاب: ١٤ × ٢٠
إخراج داخلي: مركز السلام للتجهيز الفني
الناشـــــر: دار أجيال للنشر والتوزيع
رقم الإيداع: ١٧٠٢٣ / ٢٠١٠
الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٦٢٧٧-٢٣-٦

العنوان: ٦ أبراج المهندسين - الدور السادس
شقة ٢ كورنيش المعادي - القاهرة
رقم الهاتف: ٠٠٢٠١٢٤٢٤٢٤٣٧
٠٢ ٢٥٢٨٦٥٤٠
الموقع على شبكة الإنترنت:
www.dar-ajial.com





توطئة

بقلم الأستاذ: كريم الشاذلي

وهل نحتاج لمن يدلنا إلى طريقة نفهم بها الحياة ..؟

والحقيقة أن نعم ..!

خاصة إذا كان حادينا ممن خبر الطريق، وتعامل مع أشواكه، وصعوباته، وآلامه، وتذوق من مرارة التجربة الكثير والكثير ..

رجل تأرجح جسده مشنوقا، وآخر ما أعطاه لجلاده ابتسامة .. لرجل يستحق أن نسمع منه !!.

في ظلال القرآن أحد أهم ما كُتب في القرن العشرين .. وكاتبه أحد أخطر من عرفتهم الحياة المعاصرة، أفكاره كانت ولا زالت مثار جدل وأخذ ورد شديدين، بدأ حياته في محراب الأدب، كاتبا وشاعرا وناقدا، ينتمي لمدرسة العقاد الأدبية، وطالما خاض معه وعنه المعارك الكبيرة ..

وختمها في محراب الفكر، فلم يلبث إلا وأدخله فكره إلى ساح المعركة، فالفكر الحر المشاكس، لا يروق للبعض ..

خاصة إذا ما كشف من الحقيقة ما أبدى به عورات الآخرين، وفضحهم أمام أنفسهم .. وشعوبهم .. والتاريخ .

وفي هذا الكتاب الممتع الصغير يأخذنا الأخ العزيز سيد حامد، لنتعرف على هذا المؤلف العملاق، عبر عرض سريع لحياته وتراثه الفكري الكبير ..ثم ينتقي لنا دررا صغيرة، بيد أنها تحتاج إلى ساعات وساعات من التأمل والتفكير والدراسة ..

أعتبره مدخلا جيدا لمن صعب عليه قراءة موسوعة «في ظلال القرآن»، وتشويقا للتعرف على هرم شامخ، وقمة سامية سامقة، قلما يجود زماننا بمثلها .

كريم الشاذلي



هو «سيد قطب إبراهيم حسين شاذلي»، ولد في قرية موشية، إحدى قري محافظة أسيوط بصعيد مصر، في ٩ أكتوبر ١٩٠٦م، درس الابتدائية في قريته، سافر إلى القاهرة عام ١٩٢٠م، وهناك تعرّف علي حزب الوفد وأديبه «عباس محمود العقاد».

التحق بمدرسة المعلمين الأولية، ونال إجازة الكفاءة للتعليم الأولي،

ثم التحق بكلية دار العلوم عام ١٩٢٩م؛ ليتخرج فيها عام ١٩٣٣م، ومعه شهادة البكالوريوس في الآداب.

عمل مدرسًا حوالي ستة سنوات متنقلًا بين المحافظات، ثم انتقل إلى العمل الإداري بوزارة المعارف، وشغل عدة وظائف في مراقبة الثقافة والتفتيش.

سافر عام ١٩٤٨م في بعثة إلى أمريكا للاطلاع علي مناهج التربية والتعليم هناك وعاد بعد سنتين عام ١٩٥٠م، وفي أمريكا بدأ تعرفه علي

جماعة الأخوان المسلمين، إذ شهد يومًا احتفالات ضخمة، وأنوار، وعندما سأل قالوا: اليوم قُتل عدو الصهيونية في الشرق الأوسط، اليوم قتل حسن البنا.

في أكتوبر ١٩٥٢م قدم سيد قطب استقالته من وزارة المعارف بعد خدمة استمرت قرابة تسعة عشر عامًا، بعد خلافات مع رجال الوزارة ورفضهم لآرائه الإصلاحية ذات الصبغة الإسلامية.

وحول انتمائه السياسي نجد أن قطب في بداية حياته انتظم في حزب الوفد، وبقي فيه حتى عام ١٩٤٢م، بعدها بقي بدون انتماء إلى أي حزب سياسي لمدة عشر سنوات حتى وجد ضالته في جماعة الأخوان المسلمين فانضم إليها ١٩٥٣م.

كان قطب ممن بشر بالثورة ودعا إليها في عهد الملكية، وساعد في التخطيط لها، فلما قامت أيدها وعمل مع رجالها، وسرعان ما اكتشف أن بعض رجالها حادوا بها عن الطريق المستقيم، وصارت تتعارض مع أهدافه الإسلامية فعارضها، واكتوي بنيرانها، وحكمت عليه بالسجن ١٥ عاما ذاق خلالها أشد العذاب.

كان الاعتقال الأول لسيد قطب مطلع ١٩٥٤م، واستمر ثلاثة أشهر، أمّا الاعتقال الثاني فجاء بعد تدبير عبد الناصر لمسرحية «حادثة المنشية» الشهيرة في الإسكندرية ٢٦/ ١٠/ ١٩٥٤م للتخلص من الأخوان المسلمين بتهمة محاولة اغتياله، وكان قطب على رأس من

قبضت عليهم الحكومة، وحكمت عليه المحكمة في ١٩٥٥م بالسجن ١٥ عام.

تدخل الرئيس العراقي عبد السلام عارف، فأُفرج عن سيد قطب عام ١٩٦٤م لكنه لم يهنأ كثيرًا بالحرية، فقد أعلن عبد الناصر من موسكو عن اكتشاف مؤامرة لاغتياله وقلب نظام الحكم بقيادة سيد قطب، فعاد مرة أخرى إلى السجن صيف ١٩٦٥م.

ذاق قطب في السجن ألوانًا من العذاب لكنه صمد في وجه الطغاة، وفي ٢١ أغسطس ١٩٦٦م حكمت عليه محكمة عسكرية بالإعدام مع اثنين من رفاقه، ورفض عبد الناصر كل الوساطات للإفراج عنه وسارع بالتصديق علي الحكم في أسرع تنفيذ لحكم الإعدام في تاريخ المحاكم، تصعد روح الشهيد إلى بارئها فجر يوم الاثنين ٢٩ أغسطس ١٩٦٦م.

ترك سيد قطب ٢٩ كتابًا في الأدب والنقد والفكر الإسلامي علي رأسها كتابه الأشهر «في ظلال القرآن».

عاش سيد قطب مع القرآن ٢٥ عاما بدأت من عام ١٩٤٠م وحتى ١٩٦٥م متأملًا متدبرًا ويري ذلك الفيض الغامر المنفسح الواسع في القرآن، كان قطب من المفكرين الذين يأخذهم الإعداد لفكرة سنوات وسنوات، لدرجة أنه استغرق في بعض كتبه ١٠ سنوات.

يوم الإعدام

يوم تنفيذ الإعدام، وبعد أن وُضع على كرسي المشنقة عرضوا عليه أن يعتذر عن دعوته لتطبيق الشريعة ويتم إصدار عفو عنه، فقال: «لن أعتذر عن العمل مع الله». ثم قال: «إن إصبع السبابة الذي يشهد لله بالوحدانية في الصلاة ليرفض أن يكتب حرفًا واحدًا يُقرّ به حكم طاغية».

فقالوا له: إن لم تعتذر فاطلب الرحمة من الرئيس عبد الناصر. فقال: «لماذا أسترحم؟ إن كنت محكومًا بحق فأنا أرتضي حكم الحق، وإن كنت محكومًا بباطل، فأنا أكبر من أن أسترحم الباطل».

ويُروى عن قطب أيضًا أن الذي قام بعملية تلقينه الشهادتين قبل الإعدام قال له: «تشهد»، فقال له سيد: «حتى أنت جئت تُكمل المسرحية نحن يا أخي نعدم لأجل لا إله إلا الله، وأنت تأكل الخبز بلا إله إلا الله».

***

محاربة تراث سيد قطب

بعد استشهاد سيد قطب في ١٩٦٦م بدات موجة محاربته في تراثه العلمي والأدبي، فقد أراد الطغاة محو اسم سيد قطب وكل تراثه الأدبي والفكري، وصدرت تعليمات للمكتبات ودور الطباعة والنشر «بإعدام» كل ما لديها من كتب ومؤلفات لسيد قطب وحذرت الحكومة بأنها ستعاقب بالسجن كل من يحتفظ بواحد من كتبه بتهمة الترويج لأفكار ضد الدولة.

ووصل الأمر إلى جمع كتبه من المكتبات العلمية التابعة للجامعات في صناديق وشحنها إلى «سجن القلعة». وكأن الطغاة لم يكفهم حبس قطب ١٥ عام من حياته فأردوا حبسه أفكاره من بعد رحيل جسده عن الدنيا.

لكن كان لله تدبير أخر، فقد عاشت كتب سيد قطب وتناقلتها أيدي المسلمين في كل مكان، ويكفي أن نعرف أنه في السنة التي استشهد فيها صدرت سبع طبعات من الظلال بينما لم تتم الطبعة الثانية أثناء حياته، ولقد صدق قطب عندما قال:

«ستظل كلماتُنا عرائسَ من الشمع لا روح فيها ولا حياة، حتى إذا متنا في سبيلها دبت فيها الروح، وكتبت لها الحياة».

كتاب معالم في الطريق

رغم عِظَم ما قدمه قطب للإسلام من إنتاج فكري إلا أن كتبه واجهت عقبات في طريق الانتشار، كان من بين هذه العقبات أحد كتبه. معالم في الطريق.

وهو أخر ما صدر لسيد قطب في حياته، وقد أثار هذا الكتاب عقب صدوره ضجة كبيرة، وتناوله بالنقد كُتاب السلطة وشيوخها الرسميون، واتهمه بعضهم بأنه «يكفر المجتمع»في هذا الكتاب ويدعو إلى الخروج عليه.

ويُجمع بعض الأخوان على أنه من بين الأسباب الرئيسة للحكم علي سيد قطب بالإعدام كتاب «معالم في الطريق»، فكان «معالم في الطريق» الكتاب الذي قتل صاحبه، وتناست الحكومة أن مواجهة الفكر تكون بالفكر والحجة بالحجة وليس بالسجن والتعذيب والإعدام.

وزاد الطين بلة أن «جماعة المسلمين» التي أسسها مصطفي شكري وجماعة الجهاد التي قتل أفرادها الرئيس المصري أنور السادات قالوا أن أفكارهم قد استمدوها من قرأتهم لـ«معالم على الطريق»، والحقيقة أنهم خرجوا من الكتاب بتأويلات خاطئة وباطلة جعلوها

منهجًا لدعوتهم ونسبوها إلى سيد قطب مثل: تكفير المسلم الذي لا يدخل ضمن جماعتهم، حرمة العمل في مؤسسات المجتمع، ترك الصلاة في مساجد المسلمين باعتبارهم مساجد ضرار، وجوب العزلة عن المجتمع وغير ذلك من الهراءات التي لا يمكن إن تصدر عن سيد قطب.

وقد تبرأ سيد قطب نفسه من تلك الأفهام الخاطئة، فعندما صارحته المجاهدة زينب الغزالي من أنه يشاع بين الكثير أن سيد قطب يكفر المجتمع قال لها: هذا فهم خاطئ لما أكتب، وأنه سيوضحه في الجزء الثاني من المعالم، ولكنه لقي ربه قبل أن يكتب ما أراد.

***

في ظلال القرآن

هذا احد اشهر كتب سيد قطب، ويُعد من أفضل كتب التفسير علي الإطلاق. والظلال يهتم بالجمع بين الجانب التحليلي والبلاغي والأدبي الاجتماعي، ويُصنف كذلك من بين التفاسير الموضوعية.

حيث يهتم بالوحدة الموضوعية للسورة، وذلك بالحديث عن السورة ككل، من ناحية أغراضها العامة والخاصة، مع ربط موضوعاتها، بعضها ببعض، حتى تبدو السورة، وهي في منتهى التناسق والإحكام، وكأنها عقد من لؤلؤ منظوم في غاية الإبداع.

وقد مر قطب في تفسيره للقرآن بأربع مراحل، كما يقول الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي في كتابه «سيد قطب.. من الميلاد إلى الاستشهاد»

المرحلة الأولي

الظلال في مجلة «المسلمون»

مع صدور مجلة «المسلمون» نهاية ١٩٥٣، شارك فيها قطب بكتابة تفسير للقرآن تحت عنوان مثير هو: «في ظلال القرآن»، وظهرت

الحلقة الأولي من الظلال في العدد لثالث من المجلة في فبراير ١٩٥٢.

المرحلة الثانية

الظلال قبيل اعتقال سيد قطب

في نهاية الحلقة السابعة من الظلال أعلن سيد قطب توقفه عن نشر الظلال في مجلة المسلمون، ووعد قراءه بإصدار الظلال في كتب مستقلة علي عدد أجزاء القرآن، كل جزءٍ يصدر في شهرين.

وبالفعل ظهر الجزء الأول من الظلال أكتوبر ١٩٥٢، وبحلول يناير ١٩٥٤ كان اكتمل من الظلال عشرة أجزاءٍ.

المرحلة الثالثة

الظلال في السجن

بعد حادثة المنشية وصدور حكم بالسجن على سيد قطب لمدة ١٥ عام توقف صدور الظلال بسبب العذاب الرهيب الذي صب علي صاحبه، ولما استقر سيد في مستشفي سجن طره بسبب أمراضه العديدة انصرف مرة أخري إلى إكمال الظلال.

وقد يسر الله لسيد الكتابة في السجن رغم لوائح السجون التي تنال بالعقاب كل من يُعثر داخل زنزانته علي أدوات الكتابة، وتفصيل ذلك أن سيد – قبل دخول المعتقل –كان قد تعاقد مع دار إحياء الكتب العربية علي كتابة تفسير كامل للقرآن الكريم، فلما منعته الحكومة من

الكتابة داخل السجن رفع الناشر دعوي ضد الحكومة يطالبها فيها بدفع آلاف الجنيهات تعويضًا عن الضرر الذي لحق به، فاختارت الحكومة السماح لسيد بالكتابة بدل دفع التعويض، ورأي عبد الناصر في السماح لسيد قطب بالكتابة فرصة لمواجهة الضغوط التي تنهال عليه من جميع الدول الإسلامية بالإفراج عن المفكر الإسلامي سيد قطب والادعاء بأن سيد حر طليق في سجنه بدليل استمراره في نشر الظلال.

وقد عينت الحكومة الشيخ الجليل محمد الغزالي لمراجعة الظلال قبل النشر، وقد أجاز الغزالي - رحمه الله - كل أجزاء الظلال، ولم يتعرض بالحذف إلا لتعليق سيد علي سورة البروج.

ومع نهاية فترة الخمسينات كان سيد قد أكمل الظلال.

المرحلة الرابعة

الطبعة المنقحة للظلال

كان تفسير سيد في الطبعة الأولي من الظلال لا يعدو أن يكون تسجيلًا لخواطره حول الآيات، وبيان لما فيها من جمال ومبادئ ومناهج. وعندما طالت حياته مع القرآن في السجن أعاد تفسير القرآن، مع مطلع الستينات، علي أساس المنهج الحركي، وصدر الجزء الأول عن دار إحياء الكتب العربية عام ١٩٦٠.

كتب سيد الأجزاء العشرة الأولي من الطبعة المنقحة علي ضوء

المنهج الحركي في فهم القرآن وتفسيره، وفي هذه الأجزاء فصّل القول وأسهب في التعليق علي قضايا العقيدة، والدعوة، والحركة، والجهاد، والتشريع، والجاهلية، وكان تفسيره لسورة الأنعام أكثر الأجزاء تركيزًا وأنضجها فكرًا.

ولما أفرجت الحكومة عنه بعفو صحي عام ١٩٦٤م نشر الأجزاء ١١، ١٢، ١٣ علي ضوء المنهج الجديد لكن الطغاة عجّلوا باعتقاله ثم محاكمته وإعدامه قبل تحقيق أمنيته في إكمال الظلال وفق المنهج الجديد.

وكتب الله للظلال الانتشار بين جماهير المسلمين، وتُرجم إلى العديد من اللغات مثل: الإنجليزية، والفرنسية، والفارسية، والأوردية، والإندونيسية، وغيرها حتى أصبح من أكثر الكتب الإسلامية انتشارًا في القرن العشرين.

ورغم ما في الظلال من متعة وفكر؛ إلا أن بعض المسلمين مازالوا يتوجسوا الاقتراب منه بسبب ما أذيع حولها من أوهام، يقول الشيخ القرضاوي - أطال الله عمره - في حديثه عن فكر سيد قطب خلال محنة السجن:

«وأخطر ما تحتويه التوجهات الجديدة في هذه المرحلة لسيد قطب، هو ركونه إلى فكرة «التكفير» والتوسع فيه، بحيث يفهم قارئه من ظاهر كلامه في مواضع كثيرة ومتفرقة من «الظلال» ومما أفرغه في كتابه «معالم في الطريق» أن المجتمعات كلها قد أصبحت «جاهلية»،

وهو لا يقصد بـ «الجاهلية» جاهلية العمل والسلوك فقط، بل «جاهلية العقيدة» إنها الشرك والكفر بالله، حيث لم ترضَ بحاكميته تعالى، وأشركت معه آلهة أخرى، استوردت من عندهم الأنظمة، والقوانين، والقيم، والموازين، والأفكار، والمفاهيم، واستبدلوا بها شريعة الله، وأحكام كتابه وسنة رسوله ﷺ».

نعم هناك فهم خاطئ لما كتب سيد قطب، فكتاباته لا يمكن المرور عليها سريعًا، بل تحتاج إلى تروي وإمعان للفكر فيما يكتب، صحيح أن هناك أخطاء وقع فيها سيد قطب؛ لكن من الظلم أن نرفض كتاباته لمجرد اختلافنا معه في الرأي، فليس لأحد منا العصمة من الخطأ وأن خطأ العالم لا ينقص من قدره، إذا توافرت النية الصالحة، والاجتهاد من أهله، وأن المجتهد المخطئ معذور، بل مأجور أجرًا واحدًا، كما في الحديث الشريف.

وكما قلنا أن الظلال قد مر بمراحل أربع، وفي المرحلة الرابعة اعتزم سيد قطب إعادة كتابته مرة أخري، وهذا يعني أن الأفكار ليس ثابتة، وإنما تتغير بمرور الوقت، وكم من كاتب رأي رأيا ثم تراجع عنه بعدما يتبين له الحق، وهذا ما فعله الشهيد سيد قطب. ومن يقرأ الظلال في طبعته المنقحة الصادرة عن دار الشروق يجد سيد يكتب في تعليقات أن كان يري كذا، والآن أصبح يري كذا، ولو أمتد العمر بسيد قطب لأجرى تعديلات أكثر علي ما توصل إليه في الظلال.

كتب سيد قطب الظلال بعدما عاش في القرآن ٢٥ عاما من حياته، لم يقم بالنقل عن سابقيه من المفسرين القدامى، بل ربط القرآن بحوادث العصر.

والكتاب الذي بين يديك الآن، عزيزي القارئ، ما هو إلا محاولة متواضعة لإقامة جسر من التواصل بين جماهير المسلمين و«في ظلال القرآن». نحاول أن نقدم فيه أروع ما خطته يد سيد قطب.

وكلي رجاء أن يصبح «في ظلال القرآن» داخل كل بيت مسلم، شعاعًا لبدء نهضة إسلامية.

وقد رأيت البعض يعجب بالظلال لإعجابه بسيد قطب الأديب الذي تحول إلى الكتابة الإسلامية بما يمتاز به قلمه من إبداع، وبيان عذب، وأسلوب أخاذ؛ لكن من خلال معايشتي لظلال القرآن أدركت سر نجاح الظلال؛ لقد جمع قطب بين أسلوب بليغ يملأ النفس بشحنة عاطفية حبا للإسلام، وفي نفس الوقت يحمل فكر رصين قوي، جديد، مبدع.

تعامل الظلال مع القرآن باعتباره كل متكامل، فالسورة – أي سورة تربطها وحدة موضوعية واحدة، وهو نفس الأسلوب الذي سار عليه الشيخ الغزالي في كتابه التفسير الموضوعي للظلال.

كما امتاز الظلال بالبعد عن الإسرائيليات التي شوهت كثير من كتب التفسير الإسلامي، تعجب سيد قطب كيف وقع مفسري القرآن

في شراك الإسرائيليات، حتى تفسير بن كثير لم يسلم منها. وليس هذا موضع تبيان خطر الإسرائيليات علي ديننا.

وقد حاولت قدر الإمكان - فيما اقتطفته من الظلال - أن أجمع بين الفقرات التي تدل علي أسلوب سيد قطب البليغ، وبين الفقرات التي تشير إلى المعاني الجديدة التي جاء بها الظلال في تفسيره لكتاب الله.

***

من مقدمة سيد قطب للظلال

الحياة في ظلال القرآن نعمة، نعمة لا يعرفها إلا من ذاقها، نعمة ترفع العمر وتباركه وتزكيه.

والحمد لله.. لقد مَنَّ الله عليّ بالحياة في ظلال القرآن فترة من الزمان، ذقت فيها من نعمته ما لم أذق قط في حياتي. ذقت فيها هذه النعمة التي ترفع العمر وتباركه وتزكيه.

لقد عشت أسمع الله - سبحانه - يتحدث إليّ بهذا القرآن.. أنا العبد القليل الصغير.. أيّ تكريمٍ للإنسان هذا التكريم العلوي الجليل؟ أي رفعة للعمر يرفعها هذا التنزيل؟ أي مقام كريم يتفضل به على الإنسان خالقه الكريم؟

وعشت - في ظلال القرآن - أحس التناسق الجميل بين حركة الإنسان كما يريدها الله، وحركة هذا الكون الذي أبدعه الله.. ثم أنظر.. فأرى التخبط الذي تعانيه البشرية في انحرافها عن السنن الكونية، والتصادم بين التعاليم الفاسدة الشريرة التي تُملى عليها وبين فطرتها التي فطرها الله عليها. وأقول في نفسي: أي شيطانٍ لئيمٍ هذا الذي يقود خطاها إلى هذا الجحيم؟

يا حسرةً على العباد!!!

وفي ظلال القرآن تعلمت أنه لا مكان في هذا الوجود للمصادفة العمياء، ولا للفلتة العارضة: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩].. ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾ [الفرقان:٢].. وكل أمر لحكمة. ولكن حكمة الغيب العميقة قد لا تتكشف للنظرة الإنسانية القصيرة: ﴿عَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَل الله فِيهِ خَيْراً كَثِيراً﴾ [النساء:١٩] ﴿وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦].. والأسباب التي تعارف عليها الناس قد تتبعها آثارها وقد لا تتبعها، والمقدمات التي يراها الناس حتمية قد تعقبها نتائجها وقد لا تعقبها. ذلك أنه ليست الأسباب والمقدمات هي التي تنشئ الآثار والنتائج، وإنما هي الإرادة الطليقة التي تنشئ الآثار والنتائج كما تنشئ الأسباب والمقدمات سواء:﴿لا تَدْرِي لَعَلَّ الله يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً﴾ [الطلاق:١].

***

جو القرآن

الحياة في جو القرآن - وبين هذا القرآن! والحياة في جو القرآن لا تعني مدارسة القرآن وقراءته والاطلاع على علومه.. إن هذا ليس «جو القرآن» الذي نعنيه.. إن الذي نعنيه بالحياة في جو القرآن: هو أن يعيش الإنسان في جو، وفي ظروف، وفي حركة، وفي معاناة، وفي صراع، وفي اهتمامات.. كالتي كان يتنزل فيها هذا القرآن..

أن يعيش الإنسان في مواجهة هذه الجاهلية التي تعم وجه الأرض اليوم، وفي قلبه، وفي همه، وفي حركته، أن «ينشئ» الإسلام في نفسه وفي نفوس الناس، وفي حياته وفي حياة الناس، مرة أخرى في مواجهة هذه الجاهلية. بكل تصوراتها، وكل اهتماماتها وكل تقاليدها، وكل واقعها العملي وكل ضغطها كذلك عليه، وحربها له، ومناهضتها لعقيدته الربانية، ومنهجه الرباني وكل استجاباتها كذلك لهذا المنهج ولهذه العقيدة بعد الكفاح والجهاد والإصرار.

***

الرجوع إلى الله

لا صلاح لهذه الأرض، ولا راحة لهذه البشرية، ولا طمأنينة لهذا الإنسان، ولا رفعة ولا بركة ولا طهارة، ولا تناسق مع سنن الكون وفطرة الحياة.. إلا بالرجوع إلى الله.

والرجوع إلى الله - كما يتجلى في ظلال القرآن - له صورة واحدة وطريق واحد.. واحد لا سواه.. إنه العودة بالحياة كلها إلى منهج الله الذي رسمه للبشرية في كتابه الكريم.. إنه تحكيم هذا الكتاب وحده في حياتها. والتحاكم إليه وحده في شؤونها. وإلا فهو الفساد في الأرض، والشقاوة للناس، والارتكاس في الحمأة، والجاهلية التي تعبد الهوى من دون الله:

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص:٥١].

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ﴾ [البقرة:٢٤٩]

لا يُهولن المسلم أن تكون القوة الضالة ضخمة أو عاتية، فهي بضلالها عن مصدرها الأول -قوة الله- تفقد قوتها الحقيقية. تفقد الغذاء الدائم الذي يحفظ لها طاقتها، وذلك كما ينفصل جُرم ضخم من نجم ملتهب، فما يلبث أن ينطفئ ويبرد ويفقد ناره ونوره، مهما كانت

كتلته من الضخامة، على حين تبقى لأية ذرة متصلة بمصدرها المشع قوتها وحرارتها ونورها: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ﴾ [البقرة:٢٤٩].. غلبتها باتصالها بمصدر القوة الأول، وباستمدادها من النبع الواحد للقوة وللعزة جميعًا.

***

خرافة قهر الطبيعة!

لقد درج الغربيون - ورثة الجاهلية الرومانية - على التعبير عن استخدام قوى الطبيعة بقولهم: «قهر الطبيعة».. ولهذا التعبير دلالته الظاهرة على نظرة الجاهلية المقطوعة الصلة بالله، وبروح الكون المستجيب لله.

فأما المسلم الموصول القلب بربه الرحمن الرحيم، الموصول الروح بروح هذا الوجود المسبِّحة لله رب العالمين.. فيؤمن بأن هنالك علاقة أخرى غير علاقة القهر والجفوة، إنه يعتقد أن الله هو مبدع هذه القوى جميعًا. خلقها كلها وفق ناموس واحد، لتتعاون على بلوغ الأهداف المقدرة لها بحسب هذا الناموس، وأنه سخرها للإنسان ابتداءً ويسر له كشف أسرارها ومعرفة قوانينها، وأن على الإنسان أن يشكر الله كلما هيأ له أن يظفر بمعونة من إحداها. فالله هو الذي يسخرها له، وليس هو الذي يقهرها.

***

معجزة خلق الإنسان

التربة الأرضية مؤلفة من ذرات معلومة الصفات، فإذا أخذ الناس هذه الذرات فقُصارى ما يصوغونه منها لبنة، أو آجرة، أو آنية، أو اسطوانة، أو هيكل، أو جهاز. كائنًا في دقته ما يكون.. ولكن الله المبدع يجعل من تلك الذرات حياة.

حياة نابضة خافقة. تنطوي على ذلك السر الإلهي المعجز.. سر الحياة.. ذلك السر الذي لا يستطيعه بشر، ولا يعرف سره بشر.. وهكذا القرآن.. حروف وكلمات يصوغ منها البشر كلامًا وأوزانًا، ويجعل منها الله قرآنًا وفرقانًا، والفرق بين صنع البشر وصنع الله من هذه الحروف والكلمات، هو الفرق ما بين الجسد الخامد والروح النابض.. هو الفرق ما بين صورة الحياة، وحقيقة الحياة.

***

قبل أن تفتح مصحفك

لا بد لمن يريد أن يجد الهدى في القرآن، أن يجيء إليه بقلب سليم، بقلب خالص، ثم أن يجيء إليه بقلب يخشى ويتوقى، ويحذر أن يكون على ضلالة، أو أن تستهويه ضلالة.. وعندئذ يتفتح القرآن عن أسراره وأنواره، ويسكبها في هذا القلب الذي جاء إليه متقيًا، خائفًا، حساسًا، مهيأ للتلقي.

***

التقوى.. وأشواك الطريق

التقوى.. حساسية في الضمير، وشفافية في الشعور، وخشية مستمرة، وحذر دائم، وتوق لأشواك الطريق.. طريق الحياة.. الذي تتجاذبه أشواك الرغائب والشهوات، وأشواك المطامع والمطامح وأشواك المخاوف والهواجس وأشواك الرجاء الكاذب فيمن لا يملك إجابة رجاء، والخوف الكاذب ممن لا يملك نفعًا ولا ضرًا. وعشرات غيرها من الأشواك!

الغيب تجاوز لمرتبة الحيوان

الإيمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها الإنسان، فيتجاوز مرتبة الحيوان الذي لا يدرك إلا ما تدركه حواسه، إلى مرتبة الإنسان الذي يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الصغير المحدد الذي تدركه الحواس.

الآخرة.. مفرق الطريق

اليقين بالآخرة هو مفرق الطريق بين من يعيش بين جدران الحس المغلقة، ومن يعيش في الوجود المديد الرحيب، بين من يشعر أن حياته على الأرض هي كل ما له في هذا الوجود، ومن يشعر أن حياته على الأرض ابتلاءٌ يمهد للجزاء، وأن الحياة الحقيقية إنما هي هنالك، وراء هذا الحيز الصغير المحدود.

الأنداد

الأنداد التي يشدد القرآن في النهي عنها لتخلُص عقيدة التوحيد نقيةً واضحةً، قد لا تكون آلهة تعبد مع الله على النحو الساذج الذي كان يزاوله المشركون، فقد تكون الأنداد في صور بغير الله في أي صورة، وفي الخوف من غير الله في أي صورة، وفي الاعتقاد بنفع أو ضر في غير الله في أي صورة.

امتحان الشدة

الشدة تسلطٌ على شتى النفوس، فأما المؤمن الواثق بالله وحكمته ورحمته فتُزيده الشدة التجاءًا إلى الله وتضرعًا وخشية، وأما الفاسق أو المنافق فتزلزله وتزيده من الله بُعدًا، وتخرجه من الصف إخراجًا.

والرخاء يُسلَّط على شتى النفوس، فأما المؤمن التقي فيزيده الرخاء يقظةً وحساسيةً وشكرًا. وأما الفاسق أو المنافق فتبطره النعمة ويتلفه الرخاء ويضله الابتلاء.

تربية النفوس بالبلاء

لا بد من تربية النفوس بالبلاء، ومن امتحان التصميم على معركة الحق بالمخاوف والشدائد، وبالجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات.. لا بد من هذا البلاء؛ ليؤدي المؤمنون تكاليف العقيدة، كي تعز على نفوسهم بمقدار ما أدوا في سبيلها من تكاليف.

* * *

البلاء مصدر للقوة

الشدائد تستجيش مكنون القوى، ومذخور الطاقة، وتفتح في القلب منافذ ومسارب ما كان ليعلمها المؤمن في نفسه، إلا تحت مطارق الشدائد، والقيم، والموازين، والتصورات، ما كانت لتصح وتدق وتستقيم إلا في جو المحنة التي تزيل الغبش عن العيون، والران عن القلوب.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾

[الكهف: ٥٠]

إنه التكريم في أعلى صوره، لهذا المخلوق الذي يفسد في الأرض ويسفك الدماء، ولكنه وهب من الأسرار ما يرفعه على الملائكة، لقد وُهب سر المعرفة، كما وُهب سر الإرادة المستقلة التي تختار الطريق.. إن ازدواج طبيعته، وقدرته على تحكيم إرادته في شق طريقه، واضطلاعه بأمانة الهداية إلى الله بمحاولته الخاصة.. إن هذا كله بعض أسرار تكريمه!!

***

الإنسان..
أكرم مخلوق

إن الإنسان سيد هذه الأرض، ومن أجله خُلق كل شيء فيها، فهو إذن أعز وأكرم وأغلى من كل شيء مادي، ومن كل قيمة مادية في هذه الأرض جميعًا. ولا يجوز إذن أن يستعبد أو يستذل لقاء توفير قيمة مادية أو شيء مادي..

لا يجوز أن يُعتدى على أي مقوم من مقومات إنسانيته الكريمة، ولا أن تهدر أية قيمة من قيمه لقاء تحقيق أي كسب مادي، أو إنتاج أي شيء مادي، أو تكثير أي عنصر مادي.. فهذه الماديات كلها مخلوقة - أو مصنوعة - من أجله. من أجل تحقيق إنسانيته. من أجل تقرير وجوده الإنساني. فلا يجوز إذن أن يكون ثمنها هو سلب قيمة من قيمه الإنسانية، أو نقص مقوم من مقومات كلامته.

***

نكسة إلى عالم الحيوان

الاستسلام للوهم والخرافة شديد الضرر بالغ الخطورة. ولكن أضر منه وأخطر. التنكر للمجهول كله وإنكاره، واستبعاد الغيب لمجرد عدم القدرة على الإحاطة به.. إنها تكون نكسة إلى عالم الحيوان الذي يعيش في المحسوس وحده، ولا ينفذ من أسواره إلى الوجود الطليق.

حينما يصبح الدين حرفة

آفة رجال الدين - حين يُصبح الدين حرفةً وصناعةً لا عقيدةً حارةً دافعةً - إنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، يأمرون بالخير ولا يفعلونه، ويدعون إلى البر ويهملونه، ويحرفون الكلم عن مواضعه ويؤولون النصوص القاطعة خدمة للغرض والهوى، ويجدون فتاوى وتأويلات قد تتفق في ظاهرها مع ظاهر النصوص، ولكنها تختلف في حقيقتها عن حقيقة الدين، لتبرير أغراض وأهواء لمن يملكون المال أو السلطان!

كما كان يفعل أحبار يهود!

الصلاة مفتاح الكنز

الصلاة.. إنها الصلة المباشرة بين الإنسان الفاني والقوة الباقية، إنها الموعد المختار لالتقاء القطرة المنعزلة بالنبع الذي لا يغيض، إنها مفتاح الكنز الذي يغني ويقني ويفيض، إنها الانطلاقة من حدود الواقع الأرضي الصغير إلى مجال الواقع الكوني الكبير، إنها الروح والندى والظلال في الهاجرة، إنها اللمسة الحانية للقلب المتعب المكدود.

طبيعة المؤمن

إن الطبيعة المؤمنة سمحة هينة لينة، مفتحة المنافذ للأضواء، مستعدة للاتصال بالنبع الأزلي الخالد بما فيها من نداوة ولين وصفاء، وبما فيها من حساسية وتحرج وتقوى.

العمل مناط الحكم

لا قيمة لقول بلا عمل، إن العمل هو المعتبر، أو هو الوحدة بين الكلمة المنطوقة والحركة الواقعة، وهي مناط الحكم والتقدير.

فيوض القرآن

إن نصوص القرآن لتسكب في قلب المؤمن من الإيناس، وتفتح له من أبواب المعرفة، وتفيض فيه من الإيحاءات والمشاعر ما لا يكون بغير الإيمان، ومن ثم يجد فيه الهدى، كما يستروح فيه البشرى.

لا لذرة شرك

إن العقيدة الإسلامية لا تطيق لها في القلب شريكًا ولا تقبل شعارًا غير شعارها المفرد الصريح.. إنها لا تقبل راسبًا من رواسب الجاهلية في أية صورةٍ من الصور، جل أم صغر.

الطريق واضح

إن الطريق واضح، والصراط مستقيم.. فإما العلم الذي جاء من عند الله، وإما الهوى في كل ما عداه، وليس للمسلم أن يتلقى إلا من الله، وليس له أن يدع العلم المستيقن إلى الهوى المتقلب، وما ليس من عند الله فهو الهوى بلا تردد.

الإسلام.. تعصب للخير

لقد ضمن الإسلام للبشرية أعلى أفق في التصور، وأقوم منهج في الحياة. فهو يدعو البشرية كلها أن تفيء إليه، وما كان تعصبا أن يطلب الإسلام وحدة البشرية على أساسه هو لا على أي أساس آخر، وعلى منهجه هو لا على أي منهج آخر، وتحت رايته هو لا تحت أية راية أخرى.

فالذي يدعوك إلى الوحدة في الله، والوحدة في الأرفع من التصور، والوحدة في الأفضل من النظام، ويأبى أن يشتري الوحدة بالحيدة عن منهج الله، والتردي في مهاوي الجاهلية.. ليس متعصبًا، أو هو متعصب، ولكن للخير والحق والصلاح!

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ، وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة:١٥٢].

يا للتفضل الجليل الودود! الله جل جلاله يجعل ذكره لهؤلاء العبيد مكافئًا لذكرهم له في عالمهم الصغير..

***

اذكر ربك تراه

إن العبيد حين يذكرون ربهم يذكرونه في هذه الأرض الصغيرة.. وهم أصغر من أرضهم الصغيرة! والله حين يذكرهم في هذا الكون الكبير.. وهو الله.. العلي الكبير.. أي تفضل! وأي كرم! وأي فيض في السماحة والجود! ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾.

ذكر الله ليس لفظًا باللسان، إنما هو انفعال القلب معه أو بدونه، والشعور بالله ووجوده والتأثر بهذا الشعور تأثرًا ينتهي إلى الطاعة في حده الأدنى، وإلى رؤية الله وحده ولا شيء غيره لمن يهبه الله الوصول ويذيقه حلاوة اللقاء.

***

الصبر

يتكرر ذكر الصبر في القرآن كثيرًا؛ ذلك أن الله سبحانه يعلم ضخامة الجهد الذي تقتضيه الاستقامة على الطريق بين شتى النوازع والدوافع، والذي يقتضيه القيام على دعوة الله في الأرض بين شتى الصراعات والعقبات، والذي يتطلب أن تبقى النفس مشدودة الأعصاب، مجندة القوى، يقظة للمداخل والمخارج.

الصبر تربية للنفوس

الصبر في البأساء والضراء وحين البأس.. إنها تربية للنفوس وإعداد؛ كي لا تطير شعاعا مع كل نازلة، ولا تذهب حسرة مع كل فاجعة، ولا تنهار جزعا أمام الشدة، إنه التجمل والتماسك والثبات حتى تنقشع الغاشية وترحل النازلة ويجعل الله بعد عسر يسرا. إنه الرجاء في الله والثقة بالله والاعتماد على الله.

رؤية جديدة للكون

لو ألقى الإنسان عن عقله بلادة الألفة والغفلة، فاستقبل مشاهد الكون بحس متجدد، ونظرة مستطلعة، وقلب نوّره الإيمان، ولو سار في هذا الكون كالرائد الذي يهبط إليه أول مرة، تلفت عينه كل ومضة، وتلفت سمعه كل همسة.

وتلفت حسه كل حركة، وتهز كيانه تلك الأعاجيب التي ما تني تتوالى على الأبصار والقلوب والمشاعر.. إن هذا هو ما يصنعه الإيمان، هذا التفتح، هذه الحساسية، هذا التقدير للجمال والتناسق والكمال.. إن الإيمان رؤية جديدة للكون، وإدراك جديد للجمال، وحياة على الأرض في مهرجان من صنع الله، آناء الليل وأطراف النهار..

***

حكمة تحريم الخنزير

الخنزير بذاته منفر للطبع النظيف القويم.. ومع هذا فقد حرمه الله منذ ذلك الأمد الطويل؛ ليكشف علم الناس منذ قليل أن في لحمه ودمه وأمعائه دودة شديدة الخطورة (الدودة الشريطية وبويضاتها المتكيسة).

ويقول الآن قوم: إن وسائل الطهو الحديثة قد تقدمت، فلم تعد هذه الديدان وبويضاتها مصدر خطر لأن إبادتها مضمونة بالحرارة العالية التي توافرها وسائل الطهي الحديثة.. وينسى هؤلاء الناس أن علمهم قد احتاج إلى قرون طويلة؛ ليكشف آفة واحدة؛ فمن ذا الذي يجزم بأن ليس هناك آفات أخرى في لحم الخنزير لم يكشف بعد عنها؟ أفلا تستحق الشريعة التي سبقت هذا العلم البشري بعشرات القرون أن نثق بها، وندع كلمة الفصل لها، ونحرم ما حرمت، ونحلل ما حللت، وهي من لدن حكيم خبير؟!

***

التشدد
ليس العلاج

إذا حدث أن فسد الناس في جيل من الأجيال فإن إصلاحهم لا يتأتى من طريق التشدد في الأحكام، ولكن يتأتى من طريق إصلاح تربيتهم وقلوبهم، واستحياء شعور التقوى في أرواحهم.

وإذا صح التشدد في أحكام المعاملات عند فساد الناس كعلاج رادع، وسد للذرائع، فإن الأمر في الشعائر التعبدية يختلف، إذ هي حساب بين العبد والرب، لا تتعلق به مصالح العباد تعلقًا مباشرًا كأحكام المعاملات التي يراعى فيها الظاهر، والظاهر في العبادات لا يُجدي ما لم يقم على تقوى القلوب، وإذا وُجدت التقوى لم يتفلت متفلت، ولم يستخدم الرخصة إلا حيث يرتضيها قلبه، ويراها هي الأولى، ويحس أن طاعة الله في أن يأخذ بها في الحالة التي يواجهها.

***

قمة وقاع

حين يُطل الإنسان من قمة التصور الإسلامي والمنهج الإسلامي، على البشرية كلها في جميع تصوراتها، وجميع مناهجها، وجميع نظمها - بما في ذلك تصورات أكبر فلاسفتها قديما وحديثا، ومذاهب أكبر مفكريها قديمًا وحديثًا - حين يطل الإنسان من تلك القمة الشامخة يدركه العجب!

من انشغال هذه البشرية بما هي فيه من عبث، ومن عنتٍ، ومن شقوةٍ، ومن ضآلةٍ، ومن اضطرابٍ لا يصنعه بنفسه عاقل يدعي - فيما يدعي - أنه لم يعد في حاجةٍ إلى إلهٍ! أو لم يعد على الأقل - كما يزعم - في حاجة لإتباع شريعة إله ومنهج إله!

***

الحج والمساواة

الحج: هو مؤتمر المسلمين الجامع، الذي يتلاقون فيه مجردين من كل آصرة سوى آصرة الإسلام، متجردين من كل سمة إلا سمة الإسلام، عرايا من كل شيء إلا من ثوب غير مخيط يستر العورة، ولا يميز فردًا عن فرد، ولا قبيلة عن قبيلة، ولا جنسًا عن جنس.. إن عُقدة الإسلام هي وحدها العُقدة، ونسب الإسلام هو وحده النسب، وصبغة الإسلام هي وحدها الصبغة

لا تحبس روحك في الدنيا

الإسلام لا يريد من المؤمنين أن يدعوا أمر الدنيا، فهم خلقوا للخلافة في هذه الدنيا، ولكنه يريد منهم أن يتجهوا إلى الله في أمرها، وألا يضيقوا من آفاقهم، فيجعلوا من الدنيا سورا يحصرهم فيها.. إنه يريد أن يطلق «الإنسان» من أسوار هذه الأرض الصغيرة فيعمل فيها، وهو أكبر منها ويزاول الخلافة وهو متصل بالأفق الأعلى.. ومن ثم تبدو الاهتمامات القاصرة على هذه الأرض ضئيلة هزيلة وحدها حين ينظر إليها الإنسان من قمة التصور الإسلامي.

طريقان لا ثالث لهما

ليس هناك إلا اتجاهان اثنان.
إما الدخول في السلم كافة، وإما اتباع خطوات الشيطان، إما هدى وإما ضلال، إما إسلام وإما جاهلية، إما طريق الله وإما طريق الشيطان، وإما هدى الله وإما غواية الشيطان..
ويمثل هذا الحسم ينبغي أن يدرك المسلم موقفه، فلا يتلجلج ولا يتردد ولا يتحير بين شتى السبل وشتى الاتجاهات.

الناس والدين

ليس الذي يقرره الناس هو الحق، وليس الذي يقرره الناس هو الدين. إن نظرة الإسلام تقوم ابتداءً على أساس أن فعل الناس لشي ء، وقولهم لشي ء، وإقامة حياتهم على شيء.. لا تحيل هذا الشيء حقا إذا كان مخالفا للكتاب ولا تجعله أصلا من أصول الدين ولا تجعله التفسير الواقعي لهذا الدين ولا تبرره لأن أجيالا متعاقبة قامت عليه

الإسلام.. منهج تدرج

جاء في صحيح مسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قال لرجل: «**ابدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فضل شيء فلأهلك، فإن فضل شيء عن أهلك فلذي قرابتك، فإن فضل عن ذي قرابتك شيء فهكذا وهكذا...**».

هذا الترتيب يشي بمنهج الإسلام الحكيم البسيط في تربية النفس الإنسانية وقيادتها.. إنه يأخذ الإنسان كما هو، بفطرته وميوله الطبيعية واستعداداته ثم يسير به من حيث هو كائن، ومن حيث هو واقف! يسير به خطوة خطوة، صعدًا في المرتقي العالي: على هينة وفي يسر فيصعد وهو مستريح، هو يلبي فطرته وميوله واستعداداته، وهو ينمي الحياة معه ويرقيها، لا يحس بالجهد والرهق، ولا يكبل بالسلاسل والأغلال ليجر في المرتقي! ولا تكبت طاقاته وميوله الفطرية ليحلق ويرف! ولا يعتسف به الطريق اعتسافًا، ولا يطير به طيرانًا من فوق الآكام! إنما يصعدها به صعودًا هينًا لينًا وقدماه على الأرض وبصره معلق بالسماء، وقلبه يتطلع إلى الأفق الأعلى، وروحه موصولة بالله في علاه.

***

الإسلام لا يشرع للملائكة

إن الإسلام يُشرع لناس من البشر، لا لجماعة من الملائكة، ولا لأطيافٍ مهومة في الرؤى المجنحة! ومن ثَمَّ لا ينسى - وهو يرفعهم إلى جو العبادة بتشريعاته وتوجيهاته - أنهم بشر، وأنها عبادة من بشر..

بشر فيهم ميول ونزعات، وفيهم نقص وضعف، وفيهم ضرورات وانفعالات، ولهم عواطف ومشاعر، وإشراقات وكثافات.. والإسلام يلاحظها كلها ويقودها جملة في طريق العبادة النظيف، إلى مشرق النور المضيء، في غير ما تعسف ولا اصطناع، ويقيم نظامه كله على أساس أن هذا الإنسان إنسان!

منهج واقعي

إن الإسلام منهج واقعي للحياة، لا يقوم على مثاليات خيالية جامدة في قوالب نظرية، إنه يواجه الحياة البشرية - كما هي - بعوائقها وجواذبها وملابساتها الواقعية، يواجهها ليقودها قيادة واقعية إلى السير وإلى الارتقاء في آن واحد. يواجهها بحلول عملية تكافئ واقعياتها، ولا ترفرف في خيال حالم، ورؤى مجنحة: لا تُجدي على واقع الحياة شيئًا.

لا تحزن علي ما فاتك

كل إنسان - في تجاربه الخاصة - يستطيع حين يتأمل أن يجد في حياته مكروهات كثيرة كان من ورائها الخير العميم، ولذات كثيرة كان من ورائها الشر العظيم، وكم من مطلوب كاد الإنسان يذهب نفسه حسرات على فوته، ثم تبين له بعد فترة أنه كان إنقاذًا من الله أن فوّت عليه هذا المطلوب في حينه، وكم من محنة تجرعها الإنسان لاهثًا يكاد يتقطع لفظاعتها. ثم ينظر بعد فترة فإذا هي تُنشئ له في حياته من الخير ما لم ينشئه الرخاء الطويل.

إن الإنسان لا يعلم. والله وحده يعلم. فماذا على الإنسان لو يستسلم؟

من ذاق عرف

إن القلب الذي يذوق الإسلام ويعرفه، لا يمكن أن يرتد عنه ارتدادًا حقيقيًا أبدًا. إلا إذا فسد فسادًا لا صلاح له.

قبل أن تقرأ القرآن

إن هذا القرآن ينبغي أن يقرأ وأن يتلقى من أجيال الأمة المسلمة بوعي، وينبغي أن يُتدبر على أنه توجيهات حية، تتنزل اليوم، لتُعالج مسائل اليوم، ولتنير الطريق إلى المستقبل، لا على أنه مجرد كلام جميل يرتل، أو على أنه سجل لحقيقة مضت ولن تعود! ولن ننتفع بهذا القرآن حتى نقرأه؛ لنلتمس عنده توجيهات حياتنا الواقعة في يومنا وفي غدنا كما كانت الجماعة المسلمة الأولى تتلقاه لتلتمس عنده التوجيه الحاضر في شؤون حياتها الواقعة.

وحين نقرأ القرآن بهذا الوعي، سنجد عنده ما نريد، وسنجد فيه عجائب لا تخطر على البال الساهي! سنجد كلماته وعباراته وتوجيهاته حية تنبض وتتحرك وتشير إلى معالم الطريق وتقول لنا: هذا فافعلوه وهذا لا تفعلوه، وتقول لنا: هذا عدولكم وهذا صديق. وتقول لنا: كذا فاتخذوا من الحيطة، وكذا فاتخذوا من العُدة. وتقول لنا: حديثا طويلًا مفصلًا دقيقًا في كل ما يعرض لنا من الشؤون.. وسنجد عندئذ في القرآن متاعًا وحياةً، وسندرك معنى قوله تعالى:﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:٢٤].. فهي دعوة للحياة.. للحياة الدائمة المتجددة، لا لحياة تاريخية محدودة في صفحة عابرة من صفحات التاريخ!!.

لكي نحيي القرآن

مات القرآن في حسنا.. أو نام.. ولم تعد له تلك الصورة الحقيقية التي كانت له عند نزوله في حس المسلمين، ودرجنا على أن نتلقاه، إما ترتيلا منغما نطرب له، أو نتأثر التأثر الوجداني الغامض السارب! وإما أن نقرأه أورادا أقصى ما تصنع في حس المؤمنين الصادقين منا أن تنشئ في القلب حالة من الوجد أو الراحة أو الطمأنينة المبهمة المجملة.. والقرآن ينشئ هذا كله، ولكن المطلوب - إلى جانب هذا كله -أن ينشئ في المسلم وعيًا وحياة.

نعم المطلوب أن ينشئ حالة وعي يتحرك معها القرآن حركة الحياة التي جاء لينشئها. المطلوب أن يراه المسلم في ميدان المعركة التي خاضها، والتي لا يزال مستعدا لأن يخوضها في حياة الأمة المسلمة. المطلوب أن يتوجه إليه المسلم ليسمع منه ماذا ينبغي أن يعمل؟ - كما كان المسلم الأول يفعل - وليدرك حقيقة التوجيهات القرآنية فيما يحيط به اليوم من أحداث، ومشكلات، وملابسات شتى في الحياة، وليرى تاريخ الجماعة المسلمة ممثلا في هذا القرآن، متحركا في كلماته وتوجيهاته، فيحس حينئذ أن هذا التاريخ ليس غريبا عنه، فهو تاريخه. وواقعه اليوم هو امتداد لهذا التاريخ. وما يصادفه اليوم من أحداث هو ثمرة لما صادف أسلافه.

ما يحجزنا عن القرآن

سيظل هنالك حاجز سميك بين قلوبنا وبين القرآن. طالما نحن نتلوه أو نسمعه كأنه مجرد تراتيل تعبدية مهوّمة، لا علاقة لها بواقعيات الحياة البشرية اليومية التي تواجه هذا الخلق المسمى بالإنسان، والتي تواجه هذه الأمة المسماة بالمسلمين!

الحذر لا يمنع القدر

إن الحذر من الموت لا يجدي، وإن الفزع والهلع لا يزيدان حياة، ولا يمدان أجلا، ولا يردان قضاء، وإن الله هو واهب الحياة، وهو آخذ الحياة وإنه متفضل في الحالتين حين يهب، وحين يسترد، والحكمة الإلهية الكبرى كامنة خلف الهبة وخلف الاسترداد، وإن مصلحة الناس متحققة في هذا وذاك، وإن فضل الله عليهم متحقق في الأخذ والمنح سواء.

لا إكراه في الدين

الإسلام - وهو أرقى تصور للوجود وللحياة، وأقوم منهج للمجتمع الإنساني بلا مراء - هو الذي ينادي بأن ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة:256] وهو الذي يبين لأصحابه قبل سواهم أنهم ممنوعون من إكراه الناس على هذا الدين.. فكيف بالمذاهب والنظم الأرضية القاصرة المتعسفة وهي تفرض فرضا بسلطان الدولة ولا يسمح لمن يخالفها بالحياة؟!

الكلمة الطيبة والصدقة

الصدقة التي يتبعها الأذى لا ضرورة لها! وأولى منها كلمة طيبة وشعور سمح. كلمة طيبة تضمد جراح القلوب، وتفعمها بالرضي والبشاشة، ومغفرة تغسل أحقاد النفوس وتحل محلها الإخاء والصداقة.

نظام متكامل

الإسلام نظام متكامل، تعمل نصوصه وتوجيهاته وشرائعه كلها متحدة، ولا يؤخذ أجزاء وتفاريق.

وهو يضع نظمه، لتعمل كلها في وقت واحد، فتتكامل وتتناسق، وهكذا أنشأ مجتمعه الفريد الذي لم تعرف له البشرية نظيرا في مجتمعات الأرض جميعا.

رصيد النور

إن رصيد الإيمان - الذي تقوم الأمة المسلمة حارسة عليه في الأرض، ووراثة له منذ أقدم الرسالات- هو أكرم رصيد وأقومه في حياة البشرية، إنه رصيد من الهدى والنور، ومن الثقة والطمأنينة، ومن الرضي والسعادة، ومن المعرفة واليقين.. وما يخلو قلب بشري من هذا الرصيد حتى يجتاحه القلق والظلام، وتعمره الوساوس والشكوك، ويستبد به الأسى والشقاء، ثم يروح يتخبط في ظلماء طاغية، لا يعرف أين يضع قدميه في التيه الكئيب؟!

العبودية لله

إن العبودية لله وحده - متمثلة في تلقي الشرائع والقوانين والقيم والموازين منه وحده - هي نقطة الانطلاق والتحرر البشري، الانطلاق والتحرر من سلطان الجبارين والطغاة، ومن سلطان السدنة والكهنة، ومن سلطان الأوهام والخرافات، ومن سلطان العُرف والعادة، ومن سلطان الهوى والشهوة، ومن كل سلطان زائف يمثل الإصر الذي يلوي أعناق البشر ويخفض جباههم لغير الواحد القهار.

قيمة الاهتداء

القلب المؤمن يدرك قيمة الاهتداء بعد الضلال، قيمة الرؤية الواضحة بعد الغبش، قيمة الاستقامة على الدرب بعد الحيرة، قيمة الطمأنينة للحق بعد الأرجحة، قيمة التحرر من العبودية للعبيد بالعبودية لله وحده.

معركة عقيدة

إن المعركة بين الأمة المسلمة وبين أعدائها هي قبل كل شيء معركة هذه العقيدة، وحتى حين يريد أعداؤها أن يغلبوها على الأرض، والمحصولات والاقتصاد والخامات، فإنهم يحاولون أولًا أن يغلبوها على العقيدة؛ لأنهم يعلمون بالتجارب الطويلة أنهم لا يبلغون مما يريدون شيئًا والأمة المسلمة مستمسكة بعقيدتها، ملتزمة بمنهجها، مدركة لكيد أعدائها.. ومن ثم يبذل هؤلاء الأعداء وعملاؤهم جهد الجبارين في خداع هذه الأمة عن حقيقة المعركة؛ ليفوزوا منها بعد ذلك بكل ما يريدون من استعمار واستغلال، وهم آمنون من عزمة العقيدة في الصدور! وكلما ارتقت وسائل الكيد لهذه العقيدة، والتشكيك فيها، والتوهين من عراها، استخدم أعداؤها هذه الوسائل المترقية الجديدة. ولكن لنفس الغاية القديمة: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ [آل عمران:٦٩] فهذه هي الغاية الثابتة الدفينة!

***

إتباع الرسول ﷺ

إن حب الله ليس دعوى باللسان، ولا هيامًا بالوجدان، إلا أن يصاحبه الإتباع لرسول الله، والسير على هداه، وتحقيق منهجه في الحياة.. وإن الإيمان ليس كلماتٍ تُقال، ولا مشاعر تجيش، ولا شعائر تُقام، ولكنه طاعة لله وللرسول، وعمل بمنهج الله الذي يحمله الرسول.

الدين عبادات وتشريعات

أن طبيعة الدين - أي دين - أن يتضمن تنظيمًا لحياة الناس بالتشريع وألا يقتصر على الجانب التهذيبي الأخلاقي وحده، ولا على المشاعر الوجدانية وحدها، ولا على العبادات والشعائر وحدها كذلك، فهذا لا يكون دينا، فما الدين إلا منهج الحياة الذي أراده الله للبشر، ونظام الحياة الذي يربط حياة الناس بمنهج الله.

ولا يمكن أن ينفك عنصر العقيدة الإيمانية، عن الشعائر التعبدية، عن القيم الخلقية، عن الشرائع التنظيمية، في أي دين يريد أن يصرّف حياة الناس وفق المنهج الإلهي، وأي انفصال لهذه المقومات يبطل عمل الدين في النفوس وفي الحياة ويخالف مفهوم الدين وطبيعته كما أراده الله؟!

من هو الشهيد؟

إن المسلم المؤمن بدين الله مطلوب منه أن يؤدي شهادة لهذا الدين، شهادة تؤيد حق هذا الدين في البقاء وتؤيد الخير الذي يحمله هذا الدين للبشر.. وهو لا يؤدي هذه الشهادة حتى يجعل من نفسه ومن خلقه ومن سلوكه ومن حياته صورة حية لهذا الدين، صورة يراها الناس فيرون فيها مثلًا رفيعًا، يشهد لهذا الدين بالأحقية في الوجود، وبالخيرية والأفضلية على سائر ما في الأرض من أنظمة وأوضاع وتشكيلات.

وهو لا يؤدي هذه الشهادة كذلك حتى يجعل من هذا الدين قاعدة حياته، ونظام مجتمعه، وشريعة نفسه وقومه، فيقوم مجتمع من حوله، تدبر أموره وفق هذا المنهج الإلهي القويم.. وجهاده لقيام هذا المجتمع، وتحقيق هذا المنهج، وإيثاره الموت في سبيله على الحياة في ظل مجتمع آخر لا يحقق منهج الله في حياة الجماعة البشرية.. هو شهادته بأن هذا الدين خير من الحياة ذاتها، وهي أعز ما يحرص عليه الأحياء! ومن ثم يدعى «شهيدًا».

***

وحدة أو تفرق

البشرية إما أن تعيش - كما يريدها الإسلام- أناسيّ تتجمع على زاد الروح وسمة القلب وعلامة الشعور..

وإما أن تعيش قُطعانًا خلف سياج الحدود الأرضية، أو حدود الجنس واللون.. وكلها حدود مما يقام للماشية في المرعى كي لا يختلط قطيع بقطيع!!!

طريق السعادة

لا مناص للإنسان – حين يبتغي سعادته وراحته وطمأنينة باله وصلاح حاله- من الرجوع إلى منهج الله في ذات نفسه، وفي نظام حياته، وفي منهج مجتمعه، ليتناسق مع النظام الكوني كله، فلا ينفرد بمنهج من صنع نفسه، لا يتناسق مع ذلك النظام الكوني من صنع بارئه، في حين أنه مضطر أن يعيش في إطار هذا الكون، وأن يتعامل بجملته مع النظام الكوني.

الوصل بالله

لن يكون الإسلام شعائرًا وعباداتٍ، أو إشراقات وسبحات، أو تهذيبًا خلقيًا وإرشادًا روحيًا.. دون أن يتبع هذا كله آثاره العملية ممثلة في منهج للحياة موصول بالله الذي تتوجه إليه القلوب بالعبادات والشعائر، والإشراقات والسبحات.

والذي تستشعر القلوب تقواه فتتهذب وترشد.. فإن هذا كله يبقى معطلا لا أثر له في حياة البشر ما لم تنصب آثاره في نظام اجتماعي يعيش الناس في إطاره النظيف المضيء.

***

لكي لا نصطدم بالكون

الفطرة البشرية في أصلها متناسقة مع ناموس الكون، مسلمة لربها إسلام كل شيء وكل حي، فحين يخرج الإنسان بنظام حياته عن ذلك الناموس لا يصطدم مع الكون فحسب، إنما يصطدم أولا بفطرته التي بين جنبيه، فيشقى ويتمزق، ويحتار ويقلق، ويحيا كما تحيا البشرية الضالة النكدة اليوم في عذاب من هذا الجانب - على الرغم من جميع الانتصارات العلمية، وجميع التسهيلات الحضارية المادية! إن البشرية اليوم تعاني من الخواء المرير. خواء الروح من الحقيقة التي لا تطيق فطرتها أن تصبر عليها..

حقيقة الإيمان.. وخواء حياتها من المنهج الإلهي، هذا المنهج الذي يُنسِّق بين حركتها وحركة الكون الذي تعيش فيه.

***

قوم هاربون

ما من أحد يزور البلاد الغنية الثرية في الأرض حتى يكون الانطباع الأول في حسه أن هؤلاء قوم هاربون! هاربون من أشباح تطاردهم، هاربون من ذوات أنفسهم.. وسرعان ما يتكشف الرخاء المادي والمتاع الحسي الذي يصل إلى حد التمرغ في الوحل.

عن الأمراض العصبية والنفسية والشذوذ والقلق والمرض والجنون والمسكرات والمخدرات والجريمة، وفراغ الحياة من كل تصور كريم! إنهم لا يجدون أنفسهم؛ لأنهم لا يجدون غاية وجودهم الحقيقية.. إنهم لا يجدون سعادتهم؛ لأنهم لا يجدون المنهج الإلهي الذي ينسق بين حركتهم، وحركة الكون، وبين نظامهم وناموس الوجود.. إنهم لا يجدون طمأنينتهم؛ لأنهم لا يعرفون الله الذي إليه يرجعون.

***

خط الدفاع

هذه العقيدة هي صخرة النجاة وخط الدفاع، ومصدر القوة الدافعة للأمة المسلمة.

وأعداؤه يعرفون هذا جيدًا، يعرفونه قديمًا ويعرفونه حديثا، ويبذلون في سبيل تحويل هذه الأمة عن عقيدتها كل ما في وسعهم من مكر وحيلة، ومن قوة كذلك وعُدة، وحين يُعجزهم أن يحاربوا هذه العقيدة ظاهرين يدسون لها ماكرين، وحين يُعييهم أن يحاربوها بأنفسهم وحدهم، يجندون من المنافقين المتظاهرين بالإسلام، أو ممن ينتسبون - زورا - للإسلام، جنودا مجندة، لتنخر لهم في جسم هذه العقيدة من داخل الدار، ولتصد الناس عنها، ولتزين لهم مناهج غير منهجها، وأوضاعًا غير أوضاعها، وقيادة غير قيادتها.

***

التشدد في منهج التلقي

لقد كان رسول الله ﷺ يتشدد مع أصحابه - رضوان الله عليهم - في أمر التلقي في شأن العقيدة والمنهج، بقدر ما كان يُفسح لهم في الرأي والتجربة في شؤون الحياة العملية المتروكة للتجربة والمعرفة، كشؤون الزرع، وخطط القتال.

وأمثالها من المسائل العملية البحتة التي لا علاقة لها بالتصور الاعتقادي، ولا بالنظام الاجتماعي، ولا بالارتباطات الخاصة بتنظيم حياة الإنسان.. وفرق بين هذا وذلك بين، فمنهج الحياة شي ء، والعلوم البحتة والتجريبية والتطبيقية شيء آخر.

***

هل نشهد على الإسلام بالفشل؟

نحن الذين نزعم أننا مسلمون، أرانا نتلقى في صميم فهمنا لقرآننا وحديث نبينا ﷺ عن المستشرقين وتلامذة المستشرقين! وأرانا نتلقى فلسفتنا وتصوراتنا للوجود والحياة من هؤلاء وهؤلاء، ومن الفلاسفة والمفكرين:

الإغريق والرومان والأوروبيين والأمريكان! وأرانا نتلقى نظام حياتنا وشرائعنا وقوانيننا من تلك المصادر المدخولة! وأرانا نتلقى قواعد سلوكنا وآدابنا وأخلاقنا من ذلك المستنقع الآسن، الذي انتهت إليه الحضارة المادية المجردة من روح الدين، أي دين؟! ثم نزعم - والله - أننا مسلمون! وهو زعم إثمه أثقل من إثم الكفر الصريح، فنحن بهذا نشهد على الإسلام بالفشل والمسخ، حيث لا يشهد عليه هذه الشهادة الآثمة من لا يزعمون - مثلنا - أنهم مسلمون!

***

رجعية الإسلام!!

هذه البشرية هي التي يعمل ناس منها على حرمانها من منهج الله الهادي، وهم الذين يسمون التطلع إلى هذا المنهج «رجعية!» ويحسبونه مجرد حنين إلى فترة ذاهبة من فترات التاريخ.. وهم بجهالتهم هذه أو بسوء نيتهم يحرمون البشرية التطلع إلى المنهج الوحيد الذي يمكن أن يقود خطاها إلى السلام والطمأنينة.

كما يقود خُطاها إلى النمو والرقي.. ونحن الذين نؤمن بهذا المنهج نعرف إلى ماذا ندعو. إننا نرى واقع البشرية النكد، ونشم رائحة المستنقع الآسن الذي تتمرغ فيه، ونرى هنالك على الأفق الصاعد راية النجاة تلوح للمكدودين في هجير الصحراء المحرق، والمرتقي المضيء النظيف يلوح للغارقين في المستنقع ونرى أن قيادة البشرية إن لم ترد إلى هذا المنهج فهي في طريقها إلى الارتكاس الشائن لكل تاريخ الإنسان. ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١١٠]

هذا ما ينبغي أن تدركه الأمة المسلمة؛ لتعرف حقيقتها وقيمتها، وتعرف أنها أخرجت لتكون طليعة، ولتكون لها القيادة، بما أنها هي خير أمة، والله يريد أن تكون القيادة للخير لا للشر في هذه الأرض، ومن ثم لا ينبغي لها أن تتلقى من غيرها من أمم الجاهلية، إنما ينبغي دائما أن

تعطي هذه الأمم مما لديها، وأن يكون لديها دائما ما تعطيه. ما تعطيه من الاعتقاد الصحيح، والتصور الصحيح، والنظام الصحيح، والخلق الصحيح، والمعرفة الصحيحة، والعلم الصحيح.. هذا واجبها الذي يحتمه عليها مكانها، وتحتمه عليها غاية وجودها.

واجبها أن تكون في الطليعة دائما، وفي مركز القيادة دائما. ولهذا المركز تبعاته، فهو لا يؤخذ ادعاء، ولا يسلم لها به إلا أن تكون هي أهلا له.. وهي بتصورها الاعتقادي، وبنظامها الاجتماعي أهل له، فيبقى عليها أن تكون بتقدمها العلمي، وبعمارتها للأرض - قيامًا بحق الخلافة أهلًا له كذلك.

***

المعركة الكبرى

المعركة الحربية في الحركة الإسلامية ليست معركة أسلحة وخيل ورجال وعدة وعتاد، وتدبير حربي فحسب.. فهذه المعركة الجزئية ليست منعزلة عن المعركة الكبرى في عالم الضمير، وعالم التنظيم الاجتماعي للجماعة المسلمة.

إنها ذات ارتباط وثيق بصفاء ذلك الضمير، وخلوصه، وتجرده، وتحرره من الأوهام والقيود التي تطمس على شفافيته، وتقعد به دون الفرار إلى الله! وكذلك هي ذات ارتباط وثيق بالأوضاع التنظيمية التي تقوم عليها حياة الجماعة المسلمة، وفق منهج الله القويم.

***

جهاد متواصل

ربما كان الجهاد في الميدان أخف تكاليف هذه الدعوة «الإسلامية» التي يطلب لها الصبر، ويختبر بها الإيمان. إنما هنالك المعاناة اليوم التي لا تنتهي: معاناة الاستقامة على أفق الإيمان، والاستقرار على مقتضياته في الشعور والسلوك، والصبر في أثناء ذلك على الضعف الإنساني: في النفس وفي الغير، ممن يتعامل معهم المؤمن في حياته اليومية. والصبر على الفترات التي يستعلي فيها الباطل وينتفش ويبدو كالمنتصر! والصبر على طول الطريق وبعد الشُقَّة وكثرة العقبات، والصبر على وسوسة الراحة وهفوة النفس لها في زحمة الجهد والكرب والنضال، والصبر على أشياء كثيرة ليس الجهاد في الميدان إلا واحدا منها، في الطريق المحفوف بالمكاره، طريق الجنة التي لا تنال بالأماني وبكلمات اللسان!

* * *

الهزيمة بداية نجاح

قدر الله في إعداد الجماعة المسلمة للقيادة يمضي في طريقه، بشتى الأسباب والوسائل، وشتى الملابسات والوقائع.. يمضي أحيانا عن طريق النصر الحاسم للجماعة المسلمة، فتستبشر، وترتفع ثقتها بنفسها - في ظل العون الإلهي - وتجرب لذة النصر، وتصبر على نشوته، وتجرب مقدرتها على مغالبة البطر والزهو والخيلاء، وعلى التزام التواضع والشكر لله.. ويمضي أحيانا عن طريق الهزيمة والكرب والشدة، فتلجأ إلى الله، وتعرف حقيقة قوتها الذاتية، وضعفها حين تنحرف أدنى انحراف عن منهج الله. وتجرب مرارة الهزيمة وتستعلي مع ذلك على الباطل، بما عندها من الحق المجرد وتعرف مواضع نقصها وضعفها، ومداخل شهواتها، ومزالق أقدامها فتحاول أن تصلح من هذا كله في الجولة القادمة.. وتخرج من النصر ومن الهزيمة بالزاد والرصيد.. ويمضي قدر الله وفق سنته لا يتخلف ولا يحيد.

* * *

كيف تتم حقيقة الإيمان؟

حقيقة الإيمان لا يتم تمامها في قلب حتى يتعرض لمجاهدة الناس في أمر هذا الإيمان؛ لأنه يجاهد نفسه أولا في أثناء مجاهدته للناس وتتفتح له في الإيمان آفاق لم تكن لتتفتح له أبدًا، وهو قاعد آمن سالم وتتبين له حقائق في الناس، وفي الحياة، لم تكن لتتبين له أبدًا بغير هذه الوسيلة ويبلغ هو بنفسه وبمشاعره وتصوراته، وبعاداته وطباعه، وبانفعالاته واستجاباته، ما لم يكن ليبلغه أبدًا، بدون هذه التجربة الشاقة المريرة.

وحقيقة الإيمان لا يتم تمامها في جماعة، حتى تتعرض للتجربة والامتحان والابتلاء، وحتى يتعرف كل فرد فيها على حقيقة طاقته، وعلى حقيقة غايته ثم تتعرف هي على حقيقة اللبنات التي تتألف منها. مدى احتمال كل لبنة، ثم مدى تماسك هذه اللبنات في ساعة الصدام.

***

رقابة التقوى

إن هذه الأرض لا تصلح بالتشريعات والتنظيمات، ما لم يكن هناك رقابة من التقوى في الضمير؛ لتنفيذ التشريعات والتنظيمات..

وهذه التقوى لا تجيش - تجاه التشريعات والتنظيمات - إلا حين تكون صادرة من الجهة المطلعة على السرائر، الرقيبة على الضمائر.. عندئذ يحس الفرد - وهو يهم بانتهاك حرمة القانون - أنه يخون الله، ويعصي أمره، ويصادم إرادته وأن الله مطلع على نيته هذه وعلى فعله.. وعندئذ تتزلزل أقدامه، وترتجف مفاصله، وتجيش تقواه.

الإسلام دين ودولة

الإسلام دين واقعي، يدرك أن النواهي والتوجيهات وحدها لا تكفي، ويدرك أن الدين لا يقوم بدون دولة وبدون سلطة. وأن الدين هو المنهج أو النظام الذي تقوم عليه حياة الناس العملية، وليس مجرد مشاعر وجدانية تعيش في الضمير، بلا سلطة وبلا تشريع، وبلا منهج محدد، ودستور معلوم!

نهاية الحضارة

تدمير هذه الحضارة هو العاقبة المؤكدة، التي توحي بها كل تجارب البشرية السابقة، مهما بدا من متانة هذه الحضارة، وضخامة الأسس التي تقوم عليها.

«فالإنسان» - بلا شك - هو أضخم هذه الأسس ومتى دُمِّر الإنسان، فلن تقوم الحضارة على المصانع وحدها، ولا على الإنتاج!

أصل واحد

إن التشريعات والتوجيهات - في منهج الله - إنما تنبثق كلها من أصل واحد، وترتكز على ركيزة واحدة. إنها تنبثق من العقيدة في الله، وترتكز على التوحيد المطلق سمة هذه العقيدة..

ومن ثَم يتصل بعضها ببعض ويتناسق بعضها مع بعض، ويصعب فصل جزئية منها عن جزئية، وتصبح دراسة أي منها ناقصة بدون الرجوع إلى أصلها الكبير الذي تلتقي عنده، ويصبح العمل ببعضها دون البعض الآخر غير وافٍ بتحقيق صفة الإسلام، كما أنه غير واف بتحقيق ثمار المنهج الإسلامي في الحياة.

سر تفوق مجتمع مدينة الرسول

كـان التفـوق الحقيقـي للمجتمـع المسلم على المجتمعات الجاهلية مـن حولـه - بما فيها مجتمع اليهود القائم في قلب المدينة - هو تفوقـه في البنـاء الروحـي والخلقـي والاجتماعـي والتنظيمي - بفضل المنهج القرآني الرباني- قبل أن يكـون تفوقًا عسكريًا أو اقتصاديًا أو ماديًا على العموم! بل هو لم يكن قـط تفوقـا عسـكريا واقتصـاديا وماديـا فقـد كـان أعـداء المعسـكر الإسلامي دائما أكثر عددا، وأقوى عدة، وأغنى مالا، وأوفـر مقـدرات مادية على العموم! سواء في داخل الجزيرة العربية، أو في خارجها في زمـن الفتوحـات الكـبرى بعـد ذلـك.. ولكـن التفـوق الحقيقـي كـان في ذلـك البنـاء الروحي والخلقي والاجتماعـي - ومـن ثـم السياسي والقيـادي - الـذي أسسـه الإسلام بمنهجه الرباني المتفرد.

مسلمون ينافسون اليهود في تحريف الدين

تحريف الكلم عن المقصود به، ليوافق الأهواء، ظاهرة ملحوظة في كل رجال دين ينحرفون عن دينهم، ويتخذونه حرفة وصناعة، يوافقون بها أهواء ذوي السلطان في كل زمان وأهواء الجماهير التي تريد التفلت من الدين.. واليهود أبرع من يصنع ذلك، وإن كان في زماننا هذا من محترفي دين المسلمين من ينافسون - في هذه الخصلة - اليهود!

أين نحن من الله؟

إن دين الله منهج حياة، وطاعة الله هي تحكيم هذا المنهج في الحياة، والقرب من الله لا يكون إلا بطاعته فلننظر أين نحن من الله ودينه ومنهجه.. ثم لننظر أين نحن من حال هؤلاء اليهود، الذين يعجب الله من حالهم، ويدمغهم بإثم الافتراء عليه في تزكيتهم لأنفسهم! فالقاعدة هي القاعدة، والحال هي الحال، وليس لأحد عند الله نسب ولا صهر ولا محاباة!!!

***

رجال الدين والسلطان

كم من عالم دين رأيناه يعلم حقيقة دين الله ثم يزيغ عنها. ويعلن غيرها. ويستخدم علمه في التحريفات المقصودة، والفتاوى المطلوبة لسلطان الأرض الزائل! يحاول أن يثبت بها هذا السلطان المعتدي على سلطان الله وحرماته في الأرض جميعا! لقد رأينا من هؤلاء من يعلم ويقول: إن التشريع حق من حقوق الله - سبحانه - من ادعاه فقد ادعى الألوهية.

ومن ادعى الألوهية فقد كفر، ومن أقر له بهذا الحق وتابعه عليه فقد كفر أيضا!.. ومع ذلك.. مع علمه بهذه الحقيقة، التي يعلمها من الدين بالضرورة، فإنه يدعو للطواغيت الذين يدّعون حق التشريع، ويدّعون الألوهية بادعاء هذا الحق.. ممن حكم عليهم هو بالكفر! ويسميهم «المسلمين»! ويسمي ما يزاولونه إسلامًا لا إسلام بعده!.. ولقد رأينا من هؤلاء من يكتب في تحريم الربا كله عاما ثم يكتب في حله كذلك عاما آخر.. ورأينا منهم من يبارك الفجور وإشاعة الفاحشة بين الناس، ويخلع على هذا الوحل رداء الدين وشاراته وعناوينه..

فماذا يكون هذا إلا أن يكون مصداقًا لنبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين؟

يوم أن نكون مسلمين

لا يهولنا ما نلقاه من نُصرة الملحدين والمشركين والصليبيين لليهود، فهم في كل زمان ينصرونهم على الإسلام والمسلمين.. فليست هذه هي النصرة.. ولكن كذلك لا يخدعنا هذا. فإنما يتحقق هذا الأمر للمسلمين! يوم يكونون مسلمين! وليحاول المسلمون أن يجربوا - مرة واحدة - أن يكونوا مسلمين، ثم يروا بأعينهم إن كان يبقى لليهود نصير. ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ [النساء:٥٨]

من هذه الأمانات: أمانة الشهادة لهذا الدين.. الشهادة له في النفس أولًا بمجاهدة النفس حتى تكون ترجمة له، ترجمة حية في شعورها وسلوكها، حتى يرى الناس صورة الإيمان في هذه النفس، فيقولوا: ما أطيب هذا الإيمان وأحسنه وأزكاه وهو يصوغ نفوس أصحابه على هذا المثال من الخلق والكمال! فتكون هذه شهادة لهذا الدين في النفس يتأثر بها الآخرون.. والشهادة له بدعوة الناس إليه، وبيان فضله ومزيته - بعد تمثل هذا الفضل وهذه المزية في نفس الداعية - فما يكفي أن يؤدي المؤمن الشهادة للإيمان في ذات نفسه، إذا هو لم يدع إليها الناس كذلك، وما يكون قد أدى أمانة الدعوة والتبليغ والبيان. وهي إحدى الأمانات.

منهج واحد ورب واحد

لا يُقبل من الفرد المسلم، ولا من المجتمع المسلم أن يجعل لحياته مناهج متعددة المصادر: منهجًا للحياة الشخصية، وللشعائر والعبادات، والأخلاق والآداب، مستمدًا من كتاب الله. ومنهجًا للمعاملات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدولية، مستمدًا من كتاب أحد آخر، أو من تفكير بشريّ على الإطلاق!

الإنسان.. ما أعجبه

الإنسان مخلوق عجيب، هو وحده الذي يضع قدميه على الأرض وينطلق بروحه إلى السماء.

***

أشدكم حماسة أولاكم جزعًا

إن أشد الناس حماسةً واندفاعًا وتهورًا، قد يكونون هم أشد الناس جزعًا وانهيارًا وهزيمةً عند ما يجد الجد، وتقع الواقعة.. بل إن هذه قد تكون القاعدة! ذلك أن الاندفاع والتهور والحماسة الفائقة غالبًا ما تكون منبعثة عن عدم التقدير لحقيقة التكاليف، لا عن شجاعة واحتمال وإصرار، كما أنها قد تكون منبعثة عن قلة الاحتمال، قلة احتمال الضيق والأذى والهزيمة، فتدفعهم قلة الاحتمال، إلى طلب الحركة والدفع والانتصار بأي شكل، دون تقدير لتكاليف الحركة والدفع والانتصار.. حتى إذا ووجهوا بهذه التكاليف كانت أثقل مما قدروا، وأشق مما تصوروا، فكانوا أول الصف جزعا وانهيارًا.. على حين يثبت أولئك الذين كانوا يمسكون أنفسهم، ويحتملون الضيق والأذى بعض الوقت ويعدون للأمر عُدته، ويعرفون حقيقة تكاليف الحركة، ومدى احتمال النفوس لهذه التكاليف، فيصبرون ويتمهلون ويعدون للأمر عدته..

والمتهورون المندفعون المتحمسون يحسبونهم إذ ذاك ضعافًا، ولا يعجبهم تمهلهم ووزنهم للأمور! وفي المعركة يتبين أيُّ الفريقين أكثر احتمالًا، وأيُّ الفريقين أبعد نظرًا كذلك!

اضربوا رؤوسكم في الحائط

إن الإسلام يتعامل مع النفس البشرية بواقعها كله، فهو يحاول - بكل وسائله المؤثرة - أن يرفع هذه النفس إلى أعلى مستوى تهيئها له طبيعتها وفطرتها.. ولكنه في الوقت ذاته لا يتجاهل حدود هذه الطبيعة والفطرة ولا يحاول أن يقسرها على ما ليس في طاقتها ولا يقول للناس: اضربوا رؤوسكم في الحائط فأنا أريد منكم كذا والسلام! سواء كنتم تستطيعونه أو لا تستطيعونه!

هوان الكافر

بقدر ما يقرر الإسلام كرامة الإنسان على الله وتكريمه على كل ما في الأرض، وكل من في الكون.. بقدر ما يقرّر هوانه على الله حين يكفر به، ويعتو ويتجبر، ويدعي خصائص الألوهية بغير حق.

* * *

الحُمق.. أن تطلب الدنيا فقط

من الحُمق- كما يكون من سقوط الهمة- أن يملك الإنسان التطلع إلى الدنيا والآخرة معا وإلى ثواب الدنيا وثواب الآخرة جميعًا - وهذا ما يكفله المنهج الإسلامي المتكامل الواقعي المثالي - ثم يكتفي بطلب الدنيا، ويضع فيها همه ويعيش كالحيوان والدواب والهوام بينما هو يملك أن يعيش كالإنسان! قدم تدب على الأرض وروح ترف في السماء.

الكفر حجاب

إن الكفر حجاب فمتى سقط فقد اتصلت الفطرة بالخالق، واتصل الشارد بالركب. واتصلت النبتة بالنبع. وذاقت الروح تلك الحلاوة التي لا تنسى.. حلاوة الإيمان؟!

أول مراحل الهزيمة

من سمع الاستهزاء بدينه في مجلس، فإما أن يدفع، وإما أن يقاطع المجلس وأهله، فأما التغاضي والسكوت، فهو أول مراحل الهزيمة، وهو المعبر بين الإيمان والكفر على قنطرة النفاق

متي تلحق الهزيمة بالمؤمنين؟

إن الهزيمة لا تلحق بالمؤمنين، ولم تلحق بهم في تاريخهم كله، إلا وهناك ثغرة في حقيقة الإيمان. إما في الشعور، وإما في العمل - ومن الإيمان أخذ العُدَّة وإعداد القوة في كل حين بنية الجهاد في سبيل الله وتحت هذه الراية وحدها مجردة من كل إضافة ومن كل شائبة - وبقدر هذه الثغرة تكون الهزيمة الوقتية ثم يعود النصر للمؤمنين - حين يُوجدون!

ليس بيننا وبين النصر إلا..

ليس بيننا وبين النصر في أي زمان وفي أي مكان، إلا أن نستكمل حقيقة الإيمان، ونستكمل مقتضيات هذه الحقيقة في حياتنا وواقعنا كذلك.. ومن حقيقة الإيمان أن نأخذ العُدة ونستكمل القوة، ومن حقيقة الإيمان ألا نركن إلى الأعداء وألا نطلب العزة إلا من الله.

المظهر والجوهر

يجب أن نفرق دائمًا بين حقيقة الإيمان ومظهر الإيمان.. إن حقيقة الإيمان قوة حقيقية ثابتة ثبوت النواميس الكونية ذات أثر في النفس وفيما يصدر عنها من الحركة والعمل، وهي حقيقة ضخمة هائلة كفيلة حين تواجه حقيقة الكفر المنعزلة المبتوتة المحدودة أن تقهرها.. ولكن حين يتحول الإيمان إلى مظهر فإن «حقيقة» الكفر تغلبه، إذا هي صدقت مع طبيعتها وعملت في مجالها.. لأن حقيقة أي شيء أقوى من «مظهر» أي شيء.

ولو كانت هي حقيقة الكفر وكان هو مظهر الإيمان!

خشية الله أقوى قانون

كل شريعة غير شريعة الله ما أنزل الله بها من سلطان، وما جعل فيها من سطوة على القلوب؛ لذلك تستهين القلوب بالشرائع والقوانين التي يسنها البشر لأنفسهم، ولا تنفذها إلا تحت عين الرقيب وسيف الجلاد، فأما شريعة الله فالقلوب تخضع لها وتخنع، ولها في النفس مهابة وخشية.

لا جدوى لقانون بدون التقوى

الخوف ينبغي أن يكون من الله، فهذا هو الخوف اللائق بكرامة الإنسان، أما الخوف من السيف والسوط فهو منزلة هابطة، لا تحتاج إليها إلا النفوس الهابطة.. والخوف من الله أولى وأكرم وأزكى.. على أن تقوى الله هي التي تصاحب الضمير في السر والعلن، وهي التي تكف عن الشر في الحالات التي لا يراها الناس، ولا تتناولها يد القانون. وما يمكن أن يقوم القانون وحده - مع ضرورته - بدون التقوى لأن ما يفلت من يد القانون حينئذ أضعاف أضعاف ما تناله، ولا صلاح لنفس، ولا صلاح لمجتمع يقوم على القانون وحده بلا رقابة غيبية وراءه، وبلا سلطة إلهية يتقيها الضمير.

التقوى.. حارس القانون

إن القانون لا تحرسه نصوصه، ولا يحميه حراسه، إنما تحرسه القلوب التقية التي تستقر تقوى الله فيها وخشيته، فتحرس هي القانون وتحميه، وما من قانون تمكن حمايته أن يحتال الناس عليه! ما من قانون تحرسه القوة المادية والحراسة الظاهرية! ولن تستطيع الدولة - كائنا ما كان الإرهاب فيها - أن تضع على رأس كل فرد حارسا يلاحقه لتنفيذ القانون وصيانته ما لم تكن خشية الله في قلوب الناس.

ليست مجرد عقيدة في الضمير

لقد جاء كل دين من عند الله ليكون منهج حياة، منهج حياة واقعية، جاء الدين ليتولى قيادة الحياة البشرية، وتنظيمها، وتوجيهها، وصيانتها، ولم يجئ دين من عند الله ليكون مجرد عقيدة في الضمير ولا ليكون كذلك مجرد شعائر تعبدية تؤدى في الهيكل والمحراب، فهذه وتلك - على ضرورتهما للحياة البشرية وأهميتهما في تربية الضمير البشري - لا يكفيان وحدهما لقيادة الحياة وتنظيمها وتوجيهها وصيانتها ما لم يقم على أساسهما منهج ونظام وشريعة تطبق عمليا في حياة الناس ويؤخذ الناس بها بحكم القانون والسلطان ويؤاخذ الناس على مخالفتها، ويؤخذون بالعقوبات.

القرآن.. مرشدنا الأمين

القرآن هو كتاب هذه الأمة ما عاشت، فإذا استفتته عن أعدائها أفتاها، وإذا استنصحته في أمرهم نصح لها، وإذا استرشدت به أرشدها. وقد أفتاها ونصح لها وأرشدها في شأن يهود، فدانت لها رقابهم.. ثم لما اتخذته مهجورا دانت هي لليهود، كما رأيناها تتجمع فتغلبها منهم الشرذمة الصغيرة، وهي غافلة عن كتابها.. القرآن.. شاردة عن هديه، ملقية به وراءها ظهريًّا! متبعة قول فلان وفلان!! وستبقى كذلك غارقة في كيد يهود وقهر يهود، حتى تثوب إلى القرآن.

خطاب العقل

إن هذه الرسالة تخاطب العقل.. بمعنى أنها توقظه، وتوجهه، وتقيم له منهج النظر الصحيح.. لا بمعنى أنه هو الذي يحكم بصحتها أو بطلانها، وبقبولها أو رفضها، ومتى ثبت النص كان هو الحكم وكان على العقل البشري أن يقبله ويطيعه وينفذه سواء كان مدلوله مألوفا له أو غريبا عليه.

* * *

العقل لا يغني عن الوحي

الذين يرون أن هذا العقل يُغني عن الوحي - حتى عند فرد واحد من البشر مهما بلغ عقله من الكبر - إنما يقولون في هذه القضية غير ما يقول الله..

فالله قد جعل حجته على الناس هي الوحي والرسالة، ولم يجعل هذه الحجة هي عقلهم البشري، ولا حتى فطرتهم التي فطرهم الله عليها من معرفة ربها الواحد والإيمان به؛ لأن الله سبحانه يعلم أن العقل وحده يضل، وأن الفطرة وحدها تنحرف. وأنه لا عاصم لعقل ولا لفطرة، إلا أن يكون الوحي هو الرائد الهادي، وهو النور والبصيرة.

من عرف الجاهلية يدرك نعمة الإيمان

لا يدرك حقيقة نعمة الله في هذا الدين، ولا يقدرها قدرها، من لم يعرف حقيقة الجاهلية ومن لم يذق ويلاتها - والجاهلية في كل زمان وفي كل مكان هي منهج الحياة الذي لم يشّرعه الله - فهذا الذي عرف الجاهلية وذاق ويلاتها.. ويلاتها في التصور والاعتقاد، وويلاتها في واقع الحياة.. هو الذي يحس ويشعر، ويرى ويعلم، ويدرك ويتذوق حقيقة نعمة الله في هذا الدين.

الجاهلية.. حالة مستمرة

الجاهلية ليست فترة تاريخية إنما هي حالة توجد كلما وجدت مقوّماتها في وضع أو نظام.. وهي في صميمها الرجوع بالحكم والتشريع إلى أهواء البشر، لا إلى منهج الله وشريعته للحياة. ويستوي أن تكون هذه الأهواء أهواء فرد، أو أهواء طبقة، أو أهواء أمة، أو أهواء جيل كامل من الناس.. فكلها.. ما دامت لا ترجع إلى شريعة الله.. أهواء.

الله معي.. فلا شئ ضدي

من كان الله معه، فلا شيء إذن ضده، ومهما يكن ضده من شيء فهو هباء لا وجود - في الحقيقة - له ولا أثر. ومن كان الله معه فلن يضل طريقه، فإن معية الله - سبحانه - تهديه كما أنها تكفيه، ومن كان الله معه فلن يقلق ولن يشقى، فإن قربه من الله يطمئنه ويسعده.

فلندرك قيمة ديننا

إن ارتضاء الله الإسلام دينا لهذه الأمة، ليقتضي منها ابتداء أن تدرك قيمة هذا الاختيار، ثم تحرص على الاستقامة على هذا الدين جهد ما في الطاقة من وسعٍ واقتدار.. وإلا فما أنكد وما أحمق من يهمل - بل له أن يرفض - ما رضيه الله له، ليختار لنفسه غير ما اختاره الله!

وإنها - إذن - لجريمة نكدة لا تذهب بغير جزاء، ولا يترك صاحبها يمضي ناجيا أبدًا وقد رفض ما ارتضاه له الله.. ولقد يترك الله الذين لم يتخذوا الإسلام دينا لهم، يرتكبون ما يرتكبون ويمهلهم إلى حين.. فأما الذين عرفوا هذا الدين ثم تركوه أو رفضوه.. واتخذوا لأنفسهم مناهج في الحياة غير المنهج الذي ارتضاه لهم الله.. فلن يتركهم الله أبدا ولن يمهلهم أبدا، حتى يذوقوا وبال أمرهم وهم مستحقون!

***

حينما نقضنا ميثاق الله

لو ظلت هذه الأمة تستشير قرآنها وتسمع توجيهاته، وتقيم قواعده وتشريعاته في حياتها، ما استطاع أعداؤها أن ينالوا منها في يوم من الأيام.. ولكنها حين نقضت ميثاقها مع ربها وحين اتخذت القرآن مهجورًا - وإن كانت ما تزال تتخذ منه ترانيم مطربة، وتعاويذ ورقى وأدعية! - أصابها ما أصابها.

من المتقون؟

المتقون: هم الذين يجدون في كتب الله الهدى والنور والموعظة، هم الذين تتفتح قلوبهم لما في هذه الكتب من الهدى والنور وهم الذين تتفتح لهم هذه الكتب عما فيها من الهدى والنور.. أما القلوب الجاسية الغليظة الصلدة، فلا تبلغ إليها الموعظة ولا تجد في الكلمات معانيها ولا تجد في التوجيهات روحها ولا تجد في العقيدة مذاقها ولا تنتفع من هذا الهدى ومن هذا النور بهداية ولا معرفة ولا تستجيب.. إن النور موجود، ولكن لا تدركه إلا البصيرة المفتوحة، وإن الهدى موجود، ولكن لا تدركه إلا الروح المستشرفة، وإن الموعظة موجودة، ولكن لا يلتقطها إلا القلب الواعي.

لماذا يتكرر ذكر بني إسرائيل كثيرا؟

لقد كان الله - سبحانه - يقص عليها ما وقع لبني إسرائيل من اللعن والطرد وقسوة القلب وتحريف الكلم عن مواضعه، حين نقضوا ميثاقهم مع الله، لتحذر أن تنقض هي ميثاقها مع الله، فيصيبها ما يصيب كل ناكث للعهد، ناقض للعقد.. فلما غفلت عن هذا التحذير، وسارت في طريق غير الطريق، نزع الله منها قيادة البشرية وتركها هكذا ذيلا في القافلة! حتى تثوب إلى ربها وحتى تستمسك بعهدها، وحتى توفي بعقدها. فيفي لها الله بوعده من التمكين في الأرض ومن القيادة للبشر والشهادة على الناس.. وإلا بقيت هكذا ذيلا للقافلة.. وعد الله لا يخلف الله وعده..

﴿لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا الله لَفَسَدَتا﴾ [الأنبياء:٢٢].

الحياة البشرية لا تستقيم إلا إذا تلقت العقيدة والشعائر والشرائع من مصدر واحد يملك السلطان على الضمائر والسرائر، كما يملك السلطان على الحركة والسلوك، ويجزي الناس وفق شرائعه في الحياة الدنيا، كما يجزيهم وفق حسابه في الحياة الآخرة.

فأما حين تتوزع السلطة، وتتعدد مصادر التلقي.. حين تكون السلطة لله في الضمائر والشعائر بينما السلطة لغيره في الأنظمة

والشرائع.. وحين تكون السلطة للهّ في جزاء الآخرة بينما السلطة لغيره في عقوبات الدنيا..

حينئذ تتمزق النفس البشرية بين سلطتين مختلفتين، وبين اتجاهين مختلفين، وبين منهجين مختلفين.. وحينئذ تفسد الحياة البشرية ذلك الفساد الذي تشير إليه آيات القرآن في مناسبات شتى: ﴿لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا الله لَفَسَدَتا﴾ [الأنبياء:٢٢].

الله يحب

حب الله لعبد من عبيده، أمر لا يقدر على إدراك قيمته إلا من يعرف الله - سبحانه - بصفاته كما وصف نفسه، وإلا من وجد إيقاع هذه الصفات في حسه ونفسه وشعوره وكينونته كلها.. أجل لا يقدر حقيقة هذا العطاء إلا الذي يعرف حقيقة المعطي.. الذي يعرف من هو اللهّ.. من هو صانع هذا الكون الهائل، وصانع الإنسان الذي يلخص الكون وهو جرم صغير! من هو في عظمته، ومن هو في قدرته، ومن هو في تفرده.

ومن هو في ملكوته.. من هو ومن هذا العبد الذي يتفضل الله عليه منه بالحب.. والعبد من صنع يديه - سبحانه - وهو الجليل العظيم، الحي الدائم، الأزلي الأبدي، الأول والآخر والظاهر والباطن.

حب العبد لربه

وحب العبد لربه نعمة لهذا العبد يدركها كذلك إلا من ذاقها.. وإذا كان حب الله لعبد من عبيده أمرًا هائلًا عظيمًا، وفضلًا غامرًا جزيلًا، فإن إنعام الله على العبد بهدايته لحبه وتعريفه هذا المذاق الجميل الفريد، الذي لا نظير له في مذاقات الحب كلها ولا شبيه.. هو إنعام هائل عظيم.. وفضل غامر جزيل.

وإذا كان حب الله لعبد من عبيده أمرا فوق التعبير أن يصفه، فإن حب العبد لربه أمر قلما استطاعت العبارة أن تصوره إلا في فلتات قليلة من كلام المحبين.. وهذا هو الباب الذي تفوق فيه الواصلون من رجال التصوف الصادقين.

الطاغوت

إن الطاغوت هو كل سلطان لا يستمد من سلطان الله، وكل حكم لا يقوم على شريعة الله، وكل عدوان يتجاوز الحق.. والعدوان على سلطان الله وألوهيته وحاكميته هو أشنع العدوان وأشده طغيانا، وأدخله في معنى الطاغوت لفظا ومعنى.

طريق واحد للفلاح

ليس هنالك طريق مستقل لحسن الجزاء في الآخرة وطريق آخر مستقل لصلاح الحياة في الدنيا، إنما هو طريق واحد، تصلح به الدنيا والآخرة، فإذا تنكّب هذا الطريق فسدت الدنيا وخسرت الآخرة.. هذا الطريق الواحد هو الإيمان والتقوى وتحقيق المنهج الإلهي في الحياة الدنيا..

وهذا المنهج ليس منهج اعتقاد وإيمان وشعور قلبي وتقوى فحسب، ولكنه كذلك - وتبعا لذلك - منهج حياة إنسانية واقعية، يقام، وتقام عليه الحياة.. وإقامته - مع الإيمان والتقوى - هي التي تكفل صلاح الحياة الأرضية، وفيض الرزق، ووفرة النتاج، وحسن التوزيع، حتى يأكل الناس جميعا - في ظل هذا المنهج - من فوقهم ومن تحت أرجلهم.

إن المنهج الإيماني للحياة لا يجعل الدين بديلا من الدنيا ولا يجعل سعادة الآخرة بديلا من سعادة الدنيا، ولا يجعل طريق الآخرة غير طريق الدنيا.. وهذه هي الحقيقة الغائمة اليوم في أفكار الناس وعقولهم وضمائرهم وأوضاعهم الواقعية.

لقد افترق طريق الدنيا وطريق الآخرة في تفكير الناس

وضميرهم وواقعهم، بحيث أصبح الفرد العادي - وكذلك الفكر العام للبشرية الضالة - لا يرى أن هنالك سبيلا للالتقاء بين الطريقين، ويرى على العكس أنه إما أن يختار طريق الدنيا، فيهمل الآخرة من حسابه، وإما أن يختار طريق الآخرة، فيهمل الدنيا من حسابه، ولا سبيل إلى الجمع بينهما في تصور ولا واقع.. لأن واقع الأرض والناس وأوضاعهم في هذه الفترة من الزمان توحي بهذا.

***

الدين.. منهج حياة

«الدين»، ليس كلمات تقال باللسان وليس كتبا تقرأ وترتل، وليس صفة تورث وتدعى، إنما الدين منهج حياة. منهج يشمل العقيدة المستترة في الضمير، والعبادة الممثلة في الشعائر، والعبادة التي تتمثل في إقامة نظام الحياة كلها على أساس هذا المنهج.

التشريع الأرضي ادعاء للألوهية

الذي يدّعي حق التشريع أو يزاوله، فإنما يدعي حق الألوهية أو يزاوله.. وليس هذا الحق لأحد إلا لله.. وإلا فهو الاعتداء على حق الله وسلطانه وألوهيته.. والله لا يحب المعتدين.. والذي يستمد في شيء من هذا كله من عرف الناس ومقولاتهم ومصطلحاتهم، فإنما يعدل عما أنزل الله إلى الرسول.. ويخرج بهذا العدول عن الإيمان بالله ويخرج من هذا الدين.

***

ما الحلال وما الحرام؟

جعلت كلمة «الحلال»، وكلمة «الحرام» يتقلص ظلهما في حس الناس، حتى عاد لا يتجاوز ذبيحة تذبح، أو طعاما يؤكل، أو شرابًا يشرب، أو لباسًا يلبس، أو نكاحًا يعقد.. فهذه هي الشئون التي عاد الناس يستفتون فيها الإسلام ليروا: حلال هي أم حرام! فأما الأمور العامة والشئون الكبيرة، فهم يستفتون في شأنها النظريات، والدساتير والقوانين التي استبدلت بشريعة الله! فالنظام الاجتماعي بجملته، والنظام السياسي بجملته، والنظام الدولي بجملته، وكافة اختصاصات الله في الأرض وفي حياة الناس، لم تعد مما يستفتى فيه الإسلام! والإسلام منهج للحياة كلها. من اتبعه كله فهو مؤمن وفي دين الله. ومن اتبع غيره ولو في حكم واحد فقد رفض الإيمان واعتدى على ألوهية الله، وخرج من دين الله. مهما أعلن أنه يحترم العقيدة وأنه مسلم. فإتباعه شريعة غير شريعة الله، يكذب زعمه ويدمغه بالخروج من دين الله.

***

أنت تسأل والقرآن يجيب

لقد كان هذا القرآن المكي يفسر للإنسان سر وجوده ووجود هذا الكون من حوله.. كان يقول له:

من هو؟ ومن أين جاء وكيف جاء ولما ذا جاء؟ وإلى أين يذهب في نهاية المطاف؟ من ذا الذي جاء به من العدم والمجهول؟ ومن ذا الذي يذهب به وما مصيره هناك؟.. وكان يقول له: ما هذا الوجود الذي يحسه ويراه، والذي يحس أن وراءه غيبا يستشرفه ولا يراه؟ من أنشأ هذا الوجود المليء بالأسرار؟ من ذا يدبره ومن ذا يحوره؟ ومن ذا يجدد فيه ويغير على النحو الذي يراه؟.. وكان يقول له كذلك: كيف يتعامل مع خالق هذا الكون، ومع الكون أيضا، وكيف يتعامل العباد مع خالق العباد؟!

***

شجرة الدين

وكما أن الشجرة الضخمة الباسقة الوارفة المديدة الظلال المتشابكة الأغصان، الضاربة في الهواء.. لا بد لها أن تضرب بجذورها في التربة على أعماق بعيدة، وفي مساحات واسعة تناسب ضخامتها وامتدادها في الهواء.. فكذلك هذا الدين.. إن نظامه يتناول الحياة كلها، ويتولى شؤون البشرية كبيرها وصغيرها، وينظم حياة الإنسان لا في هذه الحياة الدنيا وحدها، ولكن كذلك في الدار الآخرة ولا في عالم الشهادة وحده، ولكن كذلك في عالم الغيب المكنون عنها ولا في المعاملات الظاهرة المادية، ولكن في أعماق الضمير ودنيا السرائر والنوايا.. فهو مؤسسة ضخمة هائلة شاسعة مترامية..

ولا بد له إذن من جذور وأعماق بهذه السعة والضخامة والعمق والانتشار أيضًا.

***

نقطة البدء في الدعوة

يجب أن يكون مفهومًا لأصحاب الدعوة الإسلامية، أنهم حين يدعون الناس لإعادة إنشاء هذا الدين، يجب أن يدعوهم أولًا إلى اعتناق العقيدة - حتى ولو كانوا يدعون أنفسهم مسلمين! وتشهد لهم شهادات الميلاد بأنهم مسلمون - يجب أن يعلموهم أن الإسلام هو أولا إقرار عقيدة: لا إله إلا الله بمدلولها الحقيقي وهو رد الحاكمية لله في أمرهم كله، وطرد المعتدين على سلطان الله بادعاء هذا الحق لأنفسهم.. إقرارها في ضمائرهم وشعائرهم، وإقرارها في أوضاعهم وواقعهم.

شرع الله وشرع العباد

إن نظام الله خير في ذاته، لأنه من شرع الله. ولن يكون شرع العبيد يوما كشرع الله.. ولكن هذه ليست قاعدة الدعوة.. إن قاعدة الدعوة؛ أن قبول شرع الله وحده، ورفض كل شرع غيره هو ذاته الإسلام، وليس للإسلام مدلول سواه، فمن رغب في الإسلام فقد فصل في هذه القضية، ولم يعد بحاجة إلى ترغيبه بجمال النظام وأفضليته.. فهذه إحدى بديهيات الإيمان!

مناورة الجاهلية

إن الجاهلية التي حولنا كما أنها تضغط على أعصاب بعض المخلصين من أصحاب الدعوة الإسلامية فتجعلهم يستعجلون خطوات المنهج الإسلامي، كذلك هي تتعمد أحيانا أن تحرجهم فتسألهم: أين تفصيلات نظامكم الذي تدعون إليه؟ وماذا أعددتم لتنفيذه من بحوث ومن تفصيلات ومن مشروعات؟ وهي في هذا تتعمد أن تعجلهم عن منهجهم، وأن تجعلهم يتجاوزون مرحلة بناء العقيدة وأن يحولوا منهجهم الرباني عن طبيعته، التي تتبلور فيها النظرية من خلال الحركة، ويتحدد فيها النظام من خلال الممارسة، وتسن فيها التشريعات في ثنايا مواجهة الحياة الواقعية بمشكلاتها الحقيقية.

ومن واجب أصحاب الدعوة الإسلامية؛ ألا يستجيبوا للمناورة! من واجبهم أن يرفضوا إملاء منهج غريب على حركتهم وعلى دينهم! من واجبهم ألا يستخفهم من لا يوقنون! ومن واجبهم أن يكشفوا مناورة الإحراج وأن يستعلوا عليها وأن يتحركوا بدينهم وفق منهج هذا الدين في الحركة. فهذا من أسرار قوته، وهذا هو مصدر قوتهم كذلك.

* * *

إذا عُرف السبب

الذين يأخذهم الدهش والعجب للنقلة الهائلة التي انتقل إليها العرب في خلال ربع قرن من الزمان على عهد الرسالة المحمدية، وهي فترة لا تكفي إطلاقًا لحدوث تطور فجائي في الأوضاع الاقتصادية، سيرتفع عنهم الدهش ويزول العجب، لو أنهم حولوا انتباههم من البحث في العوامل الاقتصادية ليبحثوا عن السر في هذا المنهج الرباني الجديد، الذي جاءهم به محمد ﷺ من عند الله العليم الخبير.. ففي هذا المنهج تكمن المعجزة، وفي هذا المنهج يكمن السر الذي يبحثون عنه طويلا عند الإله الزائف الذي أقامته المادية حديثا.. إله الاقتصاد.

وإلا فأين هو التحول الاقتصادي المفاجئ في الجزيرة العربية الذي ينشئ من التصورات الاعتقادية ونظام الحكم، ومناهج الفكر، وقيم الأخلاق، وآماد المعرفة، وأوضاع المجتمع، كل هذا الذي نشأ في ربع قرن من الزمان؟!

* * *

صلاحية مدي الحياة

إن هذا القرآن لم يأت لمواجهة موقف تاريخي إنما جاء منهجا مطلقا خارجا عن قيود الزمان والمكان.

منهجا تتخذه الجماعة المسلمة حيثما كانت في مثل الموقف الذي تنزل فيه هذا القرآن، وهي اليوم في مثل هذا الموقف تماما وقد استدار الزمان كهيئته يوم جاء هذا القرآن ليُنشئ الإسلام في الأرض إنشاء.. فليكن اليقين الجازم بحقيقة هذا الدين، والشعور الواضح بحقيقة قدرة الله وقهره، والمفاصلة الحاسمة مع الباطل وأهله.. لتكن هذه عدة الجماعة المسلمة.. والله خير حافظا وهو أرحم الراحمين.

***

محاولة اغتيال أمة

إن أهل الكتاب يدرسون هذا الدين دراسة جادة عميقة فاحصة لا لأنهم يبحثون عن الحقيقة - كما يتوهم السُّذّج من أهل هذا الدين! - ولا لينصفوا هذا الدين وأصله - كما يتصور بعض المخدوعين حينما يرون اعترافًا من باحث أو مستشرق بجانب طيب في هذا الدين! - كلا! إنما هم يقومون بهذه الدراسة الجادة العميقة الفاحصة، لأنهم يبحثون عن مقتل لهذا الدين! لأنهم يبحثون عن منافذه ومساربه إلى الفطرة ليسدوها أو يميعوها! لأنهم يبحثون عن أسرار قوته ليقاوموه منها! لأنهم يريدون أن يعرفوا كيف يبني نفسه في النفوس ليبنوا على غراره التصورات المضادة التي يريدون ملء فراغ الناس بها! وهم من أجل هذه الأهداف والملابسات كلها يعرفونه كما يعرفون أبناءهم! ومن واجبنا نحن أن نعرف ذلك.

***

السم في العسل

إن الواقع التاريخي - من خلال أربعة عشر قرنا - ينطق بحقيقة واحدة.. هي هذه الحقيقة التي يقررها القرآن الكريم في هذه الآية: ﴿الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمُ﴾ [البقرة:١٤٦].. ولكن هذه الحقيقة تتضح في هذه الفترة وتتجلى بصورة خاصة.

إن البحوث التي تُكتب عن الإسلام في هذه الفترة تصدر بمعدل كتاب كل أسبوع بلغة من اللغات الأجنبية.. وتنطق هذه البحوث بمدى معرفة أهل الكتاب بكل صغيرة وكبيرة عن طبيعة هذا الدين وتاريخه، ومصادر قوته، ووسائل مقاومته، وطرق إفساد توجيهه! ومعظمهم - بطبيعة الحال - لا يُفصح عن نيته هذه فهم يعلمون أن الهجوم الصريح على هذا الدين كان يثير حماسة الدفاع والمقاومة، وأن الحركات التي قامت لطرد الهجوم المسلح على هذا الدين - الممثل في الاستعمار - إنما كانت ترتكز على قاعدة من الوعي الديني أو على الأقل العاطفة الدينية وأن استمرار الهجوم على الإسلام - ولو في الصورة الفكرية - سيظل يثير حماسة الدفاع والمقاومة!

لذلك يلجأ معظمهم إلى طريقة أخبث.. يلجأ إلى إزجاء الثناء

لهذا الدين، حتى ينوم المشاعر المتوفزة، ويخدر الحماسة المتحفزة، وينال ثقة القارئ واطمئنانه.. ثم يضع السم في الكأس ويقدمها مترعة.. هذا الدين نعمة عظيمة.. ولكنه ينبغي أن يتطور بمفهوماته ويتطور كذلك بتنظيماته ليجاري الحضارة «الإنسانية» الحديثة! وينبغي ألا يقف موقف المعارضة للتطورات التي وقعت في أوضاع المجتمع، وفي أشكال الحكم، وفي قيم الأخلاق! وينبغي - في النهاية - أن يتمثل في صورة عقيدة في القلوب، ويدع الحياة الواقعية تنظمها نظريات وتجارب وأساليب الحضارة «الإنسانية» الحديثة! ويقف فقط ليبارك ما تقرره الأرباب الأرضية من هذه التجارب والأساليب.. وبذلك يظل دينا عظيما..!!!

***

أسرار القرآن

إن أسرار هذا القرآن ستظل تتكشف لأصحابه جديدة دائمًا كلما عاشوا في ظلاله، وهم يخوضون معركة العقيدة، ويتدبرون بوعي أحداث التاريخ، ويطالعون بوعي أحداث الحاضر، ويرون بنور الله. الذي يكشف الحق، وينير الطريق.

الحرية استعلاء

ما الحرية إلا الاستعلاء بالعقيدة على جبروت المتجبرين وطغيان الطغاة. والاستهانة بالقوة المادية التي تملك أن تتسلط على الأجسام والرقاب وتعجز عن استذلال القلوب والأرواح، ومتى عجزت القوة المادية عن استذلال القلوب فقد ولدت الحرية الحقيقية في هذه القلوب.

الآخرة ليست دعوة للسلبية

الذين يفترون على عقيدة الحياة الآخرة فيقولون: إنها تدعو الناس إلى السلبية في الحياة الدنيا، وإلى إهمال هذه الحياة وتركها بلا جهد لتحسينها وإصلاحها، وإلى تركها للطغاة والمفسدين تطلعا إلى نعيم الآخرة..

الذين يفترون هذا الافتراء على عقيدة الآخرة يضيفون إلى الافتراء الجهالة! فهم يخلطون بين عقيدة الآخرة - كما هي في التصورات الكنسية المنحرفة - وعقيدة الآخرة كما هي في دين الله القويم.. فالدنيا - في التصور الإسلامي - هي مزرعة الآخرة. والجهاد في الحياة الدنيا لإصلاح هذه الحياة، ورفع الشر والفساد عنها، ورد

الاعتداء عن سلطان الله فيها، ودفع الطواغيت وتحقيق العدل والخير للناس جميعا.. كل أولئك هو زاد الآخرة وهو الذي يفتح للمجاهدين أبواب الجنة، ويعوضهم عما فقدوا في صراع الباطل، وما أصابهم من الأذى..

فكيف يتفق لعقيدة هذه تصوراتها أن يدع أهلها الحياة الدنيا تركد وتأسن، أو تفسد وتختل، أو يشيع فيها الظلم والطغيان، أو تتخلف في الصلاح والعمران.. وهم يرجون الآخرة، وينتظرون فيها الجزاء من الله؟

***

الرؤية الحق للدنيا

إن الناس إذا كانوا في فترات من الزمان يعيشون سلبيين، ويدعون الفساد والشر والظلم والطغيان والتخلف والجهالة تغمر حياتهم الدنيا - مع ادعائهم الإسلام - فإنما هم يصنعون ذلك كله أو بعضه؛ لأن تصورهم للإسلام قد فسد وانحرف ولأن يقينهم في الآخرة قد تزعزع وضعف! لا لأنهم يدينون بحقيقة هذا الدين، ويستيقنون من لقاء الله في الآخرة.

فما يستيقن أحد من لقاء الله في الآخرة، وهو يعي حقيقة هذا الدين، ثم يعيش في هذه الحياة سلبيا، أو متخلفا، أو راضيا بالشر والفساد والطغيان.

إنما يزاول المسلم هذه الحياة الدنيا، وهو يشعر أنه أكبر منها وأعلى، ويستمتع بطيباتها، أو يزهد فيها، وهو يعلم أنها حلال في الدنيا خالصة له يوم القيامة، ويجاهد لترقية هذه الحياة، وتسخير طاقاتها، وقواها وهو يعرف أن هذا واجب الخلافة عن الله فيها. ويكافح الشر والفساد والظلم محتملا الأذى والتضحية، حتى الشهادة وهو إنما يقدم لنفسه في الآخرة.. إنه يعلم من دينه أن الدنيا مزرعة الآخرة، وأن ليس هنالك طريق للآخرة لا يمر بالدنيا، وأن الدنيا صغيرة زهيدة، ولكنها من نعمة الله التي يجتاز منها إلى نعمة الله الكبرى..

موكب الدعوة

إن موكب الدعوة إلى الله موغل في القدم، ضارب في شعاب الزمن.. ماض في الخط الواصب.. مستقيم الخطى، ثابت الأقدام، يعترض طريقه المجرمون من كل قبيل، ويقاومه التابعون من الضالين والمتبوعون، ويصيب الأذى من يصيب من الدعاة، وتسيل الدماء وتتمزق الأشلاء.

والموكب في طريقه لا ينحني ولا ينثني ولا ينكص ولا يحيد.. والعاقبة هي العاقبة، مهما طال الزمن ومهما طال الطريق.. إن نصر الله دائما في نهاية الطريق.

***

الفتنة الكبرى

الفتنة الكبرى في الأرض هي أن يقوم من بين العباد من يدعي حق الألوهية عليهم، ثم يزاول هذا الحق فعلا! إنها الفتنة التي تجعل الناس شيعا ملتبسة؛ لأنهم من ناحية المظهر يبدون أمة واحدة أو مجتمعا واحدا، ولكن من ناحية الحقيقة يكون بعضهم عبيدا لبعض ويكون بعضهم في يده السلطة التي يبطش بها؛ لأنها غير مقيدة بشريعة من الله، ويكون بعضهم في نفسه الحقد والتربص، ويذوق الذين يتربصون والذين يبطشون بعضهم بأس بعض! وهم شيع ولكنها ليست متميزة ولا منفصلة ولا مفاصلة!

***

من هم المشركون؟

لا نزال نجدنا في حاجة إلى تقرير من هم المشركون؟ إنهم الذين يشركون بالله أحدا في خصائص الألوهية.

سواء في الاعتقاد بألوهية أحد مع الله، أو بتقديم الشعائر التعبدية لأحد مع الله، أو بقبول الحاكمية والشريعة من أحد مع الله، ومن باب أولى من يدعون لأنفسهم واحدة من هذه، مهما تسمَّوا بأسماء المسلمين! فلنكن من أمر ديننا على يقين! ورابعها: حدود مجالسة الظالمين - أي المشركين - والذين يتخذون دينهم لعبا ولهوا.. وقد سبق القول بأنها لمجرد التذكير والتحذير. فليست لشيء وراء ذلك - متى سمع الخوض في آيات الله أو ظهر اتخاذها لعبا ولهوا بالعمل بأية صورة مما ذكرنا أوْ مثلها.

* * *

خرافة تطور الأديان

الذين يتحدثون عن «تطور» المعتقدات وتدرجها، ويدمجون العقيدة الربانية في هذا التدرج والتطور يقولون غير ما يقوله الله سبحانه! فهذه العقيدة - كما نرى في القرآن الكريم - جاءت دائما بحقيقة واحدة، وحكيت العبارة عنها في ألفاظ بعينها: ﴿يا قَوْمِ اعْبُدُوا الله ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف:٦٥] وهذا الإله الذي دعا الرسل كلهم إليه هو «رب العالمين».. الذي يحاسب الناس في يوم عظيم.. فلم يكن هنالك رسول من عند الله دعا إلى رب قبيلة، أو رب أمة، أو رب جنس.. كما أنه لم يكن هناك رسول من عند الله دعا إلى إلهين اثنين أو آلهة متعددة.. وكذلك لم يكن هناك رسول من عند الله دعا إلى عبادة طوطمية، أو نجمية، أو «أرواحية!» أو صنمية! ولم يكن هناك دين من عند الله ليس فيه عالم آخر.. كما يزعم من يسمونهم «علماء الأديان» وهم يستعرضون الجاهليات المختلفة، ثم يزعمون أن معتقداتها كانت هي الديانات التي عرفتها البشرية في هذه الأزمان، دون غيرها!

لقد جاءت الرسل - رسولًا بعد رسولٍ - بالتوحيد الخالص، وبربوبية رب العالمين! وبالحساب في يوم الدين.. ولكن الانحرافات في خط الاعتقاد، مع الجاهليات الطارئة بعد كل رسالة، بفعل العوامل

المعقدة المتشابكة في تكوين الإنسان ذاته وفي العوالم التي يتعامل معها.. هذه الانحرافات تمثلت في صور شتى من المعتقدات الجاهلية.. هي هذه التي يدرسها «علماء الأديان!» ثم يزعمون أنها الخط الصاعد في تدرج الديانات وتطورها!

***

الكفر موت للحياة

إن الكفر انقطاع عن الحياة الحقيقية الأزلية الأبدية، التي لا تفنى ولا تغيض ولا تغيب.. فهو موت.. وانعزال عن القوة الفاعلة المؤثرة في الوجود كله.. فهو موت.. وانطماس في أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية.. فهو موت.. والإيمان اتصال، واستمداد، واستجابة.. فهو حياة.. إن الكفر حجاب للروح عن الاستشراف والاطلاع.. فهو ظلمة.. وختم على الجوارح والمشاعر.. فهو ظلمة.. وتيه في التيه وضلال.. فهو ظلمة.. وإن الإيمان تفتح ورؤية، وإدراك واستقامة.. فهو نور بكل مقومات النور.. إن الكفر انكماش وتحجر.. فهو ضيق.. وشرود عن الطريق الفطري الميسر.. فهو عسر.. وحرمان من الاطمئنان إلى الكنف الآمن.. فهو قلق.. وإن الإيمان انشراح ويسر وطمأنينة وظل ممدود.

الباطل لا يطيق الحق

طاغوت الباطل لا يطيق مجرد وجود الحق، وحتى حين يريد الحق أن يعيش في عزلة عن الباطل - تاركًا مصيرهما لفتح الله وقضائه - فإن الباطل لا يقبل منه هذا الموقف، بل يتابع الحق وينازله ويطارده.

***

الاتساق مع الكون

المنهج القرآني يُكثر من الربط بين عبودية هذا الكون لله، ودعوة البشر إلى الاتساق مع الكون الذي يعيشون فيه والإسلام لله الذي أسلم له الكون كله والذي يتحرك مسخرا بأمره. ذلك أن هذا الإيقاع بهذه الحقيقة الكونية كفيل بأن يهز القلب البشري هزا، وأن يستحثه من داخله على أن ينخرط في سلك العبادة المستسلمة، فلا يكون هو وحده نشازا في نظام الوجود كله!

مجتمعات اليوم جاهلية

إن المجتمعات البشرية اليوم - بجملتها - مجتمعات جاهلية. وهي من ثم مجتمعات «متخلفة» أو «رجعية»! بمعنى أنها «رجعت» إلى الجاهلية، بعد أن أخذ الإسلام بيدها فاستنقذها منها، والإسلام اليوم مدعو لاستنقاذها من التخلف والرجعية الجاهلية، وقيادتها في طريق التقدم و«الحضارة» بقيمها وموازينها الربانية.

إنه حين تكون الحاكمية العليا لله وحده في مجتمع - متمثلة في سيادة شريعته الربانية - تكون هذه هي الصورة الوحيدة التي يتحرر فيها البشر تحررا حقيقيا كاملا من العبودية للهوى البشري ومن العبودية للعبيد.

* * *

رجعية المهتدين

ماذا تقول الجاهلية اليوم عن المهتدين بهدى الله؟ إنها تسميهم الضالين، وتعد من يهتدي منهم ويرجع بالرضا والقبول!.. أجل من يهتدي إلى المستنقع الكريه، وإلى الوحل الذي تتمرغ الجاهلية فيه! وماذا تقول الجاهلية اليوم للفتاة التي لا تكشف عن لحمها؟ وماذا تقول للفتى الذي يستقذر اللحم الرخيص؟

إنها تسمي ترفعهما هذا ونظافتهما وتطهرهما «رجعية»، وتخلفا وجمودا وريفية!، وتحاول الجاهلية بكل ما تملكه من وسائل التوجيه والإعلام أن تغرق ترفعهما ونظافتهما وتطهرهما في الوحل الذي تتمرغ فيه في المستنقع الكريه!

وماذا تقول الجاهلية لمن ترتفع اهتماماته عن جنون مباريات الكرة وجنون الأفلام والسينما والتليفزيون، وما إليه وجنون الرقص والحفلات الفارغة والملاهي؟ إنها تقول عنه: إنه «جامد»، ومغلق على نفسه، وتنقصه المرونة والثقافة! وتحاول أن تجره إلى تفاهة من هذه ينفق فيها حياته.

***

تكاليف العبودية للطواغيت

إن تكاليف العبودية للطواغيت فاحشة - مهما لاح فيها من السلامة والأمن والطمأنينة على الحياة والمقام والرزق! - إنها تكاليف بطيئة طويلة مديدة! تكاليف في إنسانية الإنسان ذاته فهذه «الإنسانية» لا توجد، والإنسان عبد للإنسان - وأي عبودية شر من خضوع الإنسان لما يشرعه له إنسان؟!.. وأي عبودية شر من تعلق قلب إنسان بإرادة إنسان آخر به، ورضاه أو غضبه عليه؟!.. وأي عبودية شر من أن تتعلق مصائر إنسان بهوى إنسان مثله ورغباته وشهواته؟! وأي عبودية شر من أن يكون للإنسان خطام أو لجام يقوده منه كيفما شاء إنسان؟!

إنقاذ البشرية من الغرق

إن الإسلام حين يدعو الناس إلى انتزاع السلطان من أيدي غاصبيه من البشر ورده كله لله، إنما يدعوهم لإنقاذ إنسانيتهم وتحرير رقابهم من العبودية للعبيد، كما يدعوهم إلى إنقاذ أرواحهم وأموالهم من هوى الطواغيت وشهواتهم.. إنه يكلفهم أعباء المعركة مع الطاغوت - تحت رايته - بكل ما فيها من تضحيات ولكنه ينقذهم من تضحيات أكبر وأطول، كما أنها أذل وأحقر!.. إنه يدعوهم للكرامة، وللسلامة، في آنٍ.

الابتلاء إيقاظ للفطرة

من طبيعة الابتلاء بالشدة أن يوقظ الفطرة التي ما يزال فيها خير يرجى، وأن يرقق القلوب التي طال عليها الأمد متى كانت فيها بقية، وأن يتجه بالبشر الضعاف إلى خالقهم القهار يتضرعون إليه ويطلبون رحمته وعفوه، ويعلنون بهذا التضرع عن عبوديتهم له.

***

الابتلاء صانع الرجال

إن الرخاء ابتلاء آخر كابتلاء الشدة. وهو مرتبة أشد وأعلى من مرتبة الشدة!، والله يبتلي بالرخاء كما يبتلي بالشدة، يبتلي الطائعين والعصاة سواء. بهذه وبذاك سواء.. والمؤمن يبتلى بالشدة فيصبر، ويبتلى بالرخاء فيشكر. ويكون أمره كله خيرا.

***

مؤهلات النجاح

الإيمان بالله دليل على حيوية في الفطرة وسلامة في أجهزة الاستقبال الفطرية وصدق في الإدراك الإنساني، وحيوية في البنية البشرية، ورحابة في مجال الإحساس بحقائق الوجود.. وهذه كلها من مؤهلات النجاح في الحياة الواقعية.

والإيمان بالله قوة دافعة دافقة، تجمع جوانب الكينونة البشرية كلها، وتتجه بها إلى وجهة واحدة، وتطلقها تستمد من قوة الله، وتعمل لتحقيق مشيئته في خلافة الأرض وعمارتها، وفي دفع الفساد والفتنة عنها، وفي ترقية الحياة ونمائها.. وهذه كذلك من مؤهلات النجاح في الحياة الواقعية.

توازن الحياة بين الأرض والسماء

حين تسير الحياة متناسقة بين الدوافع والكوابح، عاملة في الأرض، متطلعة إلى السماء، متحررة من الهوى والطغيان البشري، عابدة خاشعة لله.. تسير سيرة صالحة منتجة تستحق مدد الله بعد رضاه. فلا جرم تحفها البركة، ويعمها الخير، ويظلها الفلاح.

دين الحاكم

الذين يظنون أنهم مسلمون بينما هم خاضعون لشريعة من صنع البشر - أي لربوبية غير ربوبية الله - واهمون إذا ظنوا لحظة واحدة أنهم مسلمون! إنهم لا يكونون في دين الله لحظة واحدة وحاكمهم غير الله، وقانونهم غير شريعة الله، إنما هم في دين حاكمهم ذاك، في دين الملك لا في دين الله!

***

فقاعة الباطل

إنه الباطل ينتفش، ويسحر العيون، ويسترهب القلوب، ويخيل إلى الكثيرين أنه غالب، وأنه جارف، وأنه محيق! وما هو إلا أن يواجه الحق الهادئ الواثق حتى ينفثىء كالفقاعة، وينكمش كالقنفذ، وينطفئ كشعلة الهشيم! وإذا الحق راجح الوزن، ثابت القواعد، عميق الجذور.

إنها معركة عقيدة ليس إلا

الذي يدرك طبيعة المعركة بينه وبين الطاغوت.. وأنها معركة العقيدة في الصميم.. لا يداهن ولا يناور..ولا يرجو الصفح والعفو من عدو لن يقبل منه إلا ترك العقيدة، لأنه إنما يحاربه ويطارده على العقيدة.

***

فرعون لم يدعى الألوهية

إن فرعون لم يكن يدعي الألوهية بمعنى أنه هو خالق هذا الكون ومدبره، أو أن له سلطانا في عالم الأسباب الكونية، إنما كان يدعي الألوهية على شعبه المستذل! بمعنى أنه هو حاكم هذا الشعب بشريعته وقانونه وأنه بإرادته وأمره تمضي الشئون وتقضى الأمور، وهذا ما يدعيه كل حاكم يحكم بشريعته وقانونه، وتمضي الشؤون وتقضى الأمور بإرادته وأمره - وهذه هي الربوبية بمعناها اللغوي والواقعي - كذلك لم يكن الناس في مصر يعبدون فرعون بمعنى تقديم الشعائر التعبدية له - فقد كانت لهم آلهتهم وكان لفرعون آلهته التي يعبدها كذلك، كما هو

ظاهر من قول الملأ له: ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ [الأعراف:١٢٧] وكما يثبت المعروف من تاريخ مصر الفرعونية، إنما هم كانوا يعبدونه بمعنى أنهم خاضعون لما يريده بهم، لا يعصون له أمرا، ولا ينقضون له شرعا.. وهذا هو المعنى اللغوي والواقعي والاصطلاحي للعبادة.. فأيما ناس تلقوا التشريع من بشر وأطاعوه فقد عبدوه.

***

يا سارية.. الجبل

إن طبيعة هذا الدين واضحة لا تحتمل التلبيس! صلبة لا تقبل التمييع! والذين يلحدون في هذا الدين يجدون مشقة في تحويله عن طبيعته هذه الواضحة الصلبة.. وهم من أجل ذلك يوجهون إليه جهودا لا تكل، وحملات لا تنقطع، ويستخدمون في تحريفه عن وجهته وفي تمييع طبيعته، كل الوسائل وكل الأجهزة، وكل التجارب.. هم يسحقون سحقا وحشيا كل طلائع البعث والحيوية الصلبة الصامدة في كل مكان على وجه الأرض عن طريق الأوضاع التي يقيمونها ويكفلونها في كل بقاع الأرض! وهم يسلطون المحترفين من علماء هذا الدين عليه، يحرفون الكلم عن مواضعه، ويحلون ما حرم الله، ويميعون ما شرعه، ويباركون الفجور والفاحشة ويرفعون عليها رايات الدين وعناوينه! وهم يزحلقون المخدوعين في الحضارات المادية، المأخوذين بنظرياتها وأوضاعها ليحاولوا زحلقة الإسلام في التشبه بهذه النظريات وهذه الأوضاع، ورفع شعاراتها، أو الاقتباس من نظرياتها وشرائعها ومناهجها! وهم يصورون الإسلام الذي يحكم الحياة حادثا تاريخيا مضى ولا تمكن إعادته، ويشيدون بعظمة هذا الماضي ليخدروا مشاعر المسلمين، ثم ليقولوا لهم - في ظل هذا التخدير -: إن الإسلام اليوم

يجب أن يعيش في نفوس أهله عقيدة وعبادة، لا شريعة ونظاما، وحسبه وحسبهم ذلك المجد التاريخي القديم! هذا وإلا فإن على هذا الدين أن «يتطور» فيصبح محكوما بواقع البشر، يبصم لهم على كل ما يقدمونه له من تصورات وقوانين.

***

إعلان تحرير الإنسان

إن هذا الدين إعلان عام لتحرير «الإنسان» في «الأرض» من العبودية للعباد – ومن العبودية لهواه أيضا وهي من العبودية للعباد – وذلك بإعلان ألوهية الله وحده – سبحانه – وربوبيته للعالمين.

إن إعلان ربوبية الله وحده للعالمين معناها: الثورة الشاملة على حاكمية البشر في كل صورها وأشكالها وأنظمتها وأوضاعها والتمرد الكامل على كل وضع في أرجاء الأرض الحكم فيه للبشر بصورة من الصور.

***

مملكة الله في الأرض

مملكة الله في الأرض لا تقوم بأن يتولى الحاكمية في الأرض رجال بأعيانهم - هم رجال الدين كما كان الأمر في سلطان الكنيسة، ولا رجال ينطقون باسم الآلهة، كما كان الحال في ما يعرف باسم «الثيوقراطية» أو الحكم الإلهي المقدس!!! - ولكنها تقوم بأن تكون شريعة الله هي الحاكمة وأن يكون مرد الأمر إلى الله وفق ما قرره من شريعة مبينة.

***

الهوى والصد عن الفطرة

إن الحق في ذاته لا يخفى على الفطرة.. إن هناك اصطلاحا من الفطرة على الحق الذي فطرت عليه والذي خلقت به السماوات والأرض.. ولكنه الهوى هو الذي يحول بين الحق والفطرة.. الهوى هو الذي ينشر الغبش، ويحجب الرؤية، ويعمي المسالك، ويخفي الدروب.. والهوى لا تدفعه الحجة إنما تدفعه التقوى.. تدفعه مخافة الله، ومراقبته في السر والعلن.

الغاية لا تبرر الوسيلة

إن الإسلام يريد للبشرية أن ترتفع ويريد للبشرية أن تعف فلا يبيح الغدر في سبيل الغلب، وهو يكافح لأسمى الغايات وأشرف المقاصد ولا يسمح للغاية الشريفة أن تستخدم الوسيلة الخسيسة.

***

حضارة إسلامية لا عربية

لقد اجتمع في المجتمع الإسلامي المتفوق: العربي والفارسي والشامي والمصري والمغربي والتركي والصيني والهندي والروماني والإغريقي والإندونيسي والإفريقي... إلى آخر الأقوام والأجناس. وتجمعت خصائصهم كلها لتعمل متمازجة متعاونة متناسقة في بناء المجتمع الإسلامي والحضارة الإسلامية، ولم تكن هذه الحضارة الضخمة يوما ما «عربية» إنما كانت دائما «إسلامية»، ولم تكن يوما ما «قومية» إنما كانت دائما «عقيدية».

إذا كان لابد من عبودية فلتكن لله

إنه لا بد من عبودية! فإن لم تكن لله وحده تكن لغير الله.. والعبودية لله وحده تطلق الناس أحرارا كراما شرفاء أعلياء، والعبودية لغير الله تأكل إنسانية الناس وكرامتهم وحرياتهم وفضائلهم، ثم تأكل أموالهم ومصالحهم المادية في النهاية.

* * *

خطر الأصدقاء السذج

من أجل ذلك كله تنال قضية الألوهية والعبودية كل تلك العناية في رسالات الله - سبحانه - وفي كتبه.

الخطر الحقيقي على هذا الدين ليس كامنا في أن يكون له أعداء أقوياء واعون مدربون بقدر ما يكمن في أن يكون له أصدقاء سذج مخدوعون، يتحرجون في غير تحرج ويقبلون أن يتترس أعداؤهم بلافتة خادعة من الإسلام بينما هم يرمون الإسلام من وراء هذه اللافتة الخادعة!

إن الواجب الأول للدعاة إلى هذا الدين في الأرض، أن ينزلوا تلك اللافتات الخادعة المرفوعة على الأوضاع الجاهلية، والتي تحمي هذه الأوضاع المقامة لسحق جذور هذا الدين في الأرض جميعا! وإن نقطة البدء في أية حركة إسلامية هي تعرية الجاهلية من ردائها الزائف وإظهارها على حقيقتها.. شركا وكفرا.. ووصف الناس بالوصف الذي يمثل واقعهم كما تواجههم الحركة الإسلامية بالطلاقة الكاملة.

***

لحظة إشراق تساوي الدنيا

إن لحظة اتصال بالله. لحظة شهود جلاله، لحظة انطلاق من حبسة هذه الأمشاج، ومن ثقلة هذه الأرض وهمومها القريبة، لحظة تنبثق فيها في أعماق القلب البشري شعاعة من ذلك النور الذي لا تدركه الأبصار.

لحظة إشراق تنير فيها حنايا الروح بقبس من روح الله.. إن لحظة واحدة من هذه اللحظات التي تتفق للندرة القليلة من البشر في ومضة صفاء، ليتضاءل إلى جوارها كل متاع، وكل رجاء.. فكيف برضوان من الله يغمر هذه الأرواح، وتستشعره بدون انقطاع؟

﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:٧٢]..

الاندماج في الكون

حينما يتصل قلب عبد بربه فإنه يحس الاتصال بالوجود كله وينبض قلب الوجود معه، وتنزاح العوائق والحواجز الناشئة عن الشعور بالفوارق والفواصل التي تميز الأنواع والأجناس، وتقيم بينها الحدود والحواجز، وعندئذ تتلاقى ضمائرها وحقائقها في ضمير الكون وحقيقته، وفي لحظات الإشراق تحس الروح باندماجها في الكل، واحتوائها على الكل.. عندئذ لا تحس بأن هنالك ما هو خارج عن ذاتها ولا بأنها هي متميزة عما حولها، فكل ما حولها مندمج فيها وهي مندمجة فيه.

***

تعمير الحياة طريقك للآخرة

إن الذين يوجهون قلوبهم للآخرة، لا يخسرون متاع الحياة الدنيا - كما يقوم في الأخيلة المنحرفة - فصلاح الآخرة في الإسلام يقتضي صلاح هذه الدنيا، والإيمان بالله يقتضي حسن الخلافة في الأرض، وحسن الخلافة في الأرض هو استعمارها، والتمتع بطيباتها. إنه لا تعطيل للحياة في الإسلام انتظارا للآخرة، ولكن تعمير للحياة بالحق والعدل والاستقامة ابتغاء رضوان الله، وتمهيدا للآخرة.. هذا هو الإسلام.

مادام في الأرض كفر فالجهاد ماض

إن دين الله لا بد أن ينطلق لتحرير البشر من العبودية للعباد، وردهم إلى العبودية لله وحده. ولا بد أن يقف له الطاغوت في الطريق.. بل لا بد أن يقطع عليه الطريق.. ولا بد لدين الله أن ينطلق في «الأرض» كلها لتحرير «الإنسان» كله، ولا بد للحق أن يمضي في طريقه ولا ينثني عنه ليدع للباطل طريقا!.. وما دام في الأرض كفر، وما دام في الأرض باطل، وما دامت في الأرض عبودية لغير الله تذل كرامة الإنسان فالجهاد في سبيل الله ماض، والبيعة في عنق كل مؤمن تطالبه بالوفاء.

العقيدة.. الوشيجة الكبرى

إن العقيدة هي العروة الكبرى التي تلتقي فيها سائر الأواصر البشرية والعلاقات الإنسانية، فإذا انبتّت وشيجة العقيدة انبتّت الأواصر الأخرى من جذورها، فلا لقاء بعد ذلك في نسب، ولا لقاء بعد ذلك في صهر. ولا لقاء بعد ذلك في قوم، ولا لقاء بعد ذلك في أرض.. إما إيمان بالله فالوشيجة الكبرى موصولة، والوشائج الأخرى كلها تنبع منها وتلتقي بتا، أو لا إيمان فلا صلة إذن يمكن أن تقوم بين إنسان وإنسان.

في ظلال الكون

إن هذا الليل الطامي السادل الشامل، الساكن إلا من دبيب الرؤى والأشباح، وهذا الفجر المتفتح في سدف الليل كابتسامة الوليد الراضي، وهذه الحركة يتنفس بها الصبح فيدب النشاط في الحياة والأحياء، وهذه الظلال السارية يحسبها الرائي ساكنة وهي تدب في لطف، وهذا الطير الرائح الغادي القافز الواثب الذي لا يستقر على حال، وهذا النبت النامي المتطلع أبدا إلى النمو والحياة، وهذه الخلائق الذاهبة الآئبة في تدافع وانطلاق، وهذه الأرحام التي تدفع والقبور التي تبلع، والحياة ماضية في طريقها كما شاء الله.

إن هذا الحشد من الصور والظلال، والأنماط والأشكال، والحركات والأحوال، والرواح والذهاب، والبلى والتجدد، والذبول والنماء، والميلاد والممات، والحركة الدائبة في هذا الكون الهائل التي لا تني ولا تتوقف لحظة من ليل أو نهار..

إن هذا كله ليستجيش كل خالجة في كيان الإنسان للتأمل والتدبر والتأثر، حين يستيقظ القلب، ويتفتح لمشاهدة الآيات المبثوثة في ظواهر الكون وحناياه.. والقرآن الكريم يعمد مباشرة إلى إيقاظ القلب والعقل لتدبر هذا الحشد من الصور والآيات.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ الله الَّذِي خَلَقَ السَّماوات وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [يونس:٣]

لحظة تدبر

لو وقف الإنسان لحظة واحدة يرقب ما خلق الله فِي السماوات والأرضِ، ويستعرضِ هذا الحشد الذي لا يحصى من الأنواع والأجناس، والهيئات والأحوال، والأوضاع والأشكال، لو وقف لحظة واحدة لامتلأ وطاب وفاض، بما يغنيه حياته كلها، ويشغله بالتدبر والتفكر والتأثر ما عاش.

***

دستور شامل

إن هذا القرآن دستور حياة شامل، منسق بحيث يفي بمطالب هذه البشرية في حياتها الفردية والجماعية، ويهديها إلى طريق الكمال في حياة الأرض بقدر ما تطيق، ثم إلى الحياة الأخرى في نهاية المطاف. ومن يدرك القرآن على حقيقته لا يخطر له أن يطلب سواه، أو يطلب تبديل بعض أجزائه.

***

ساعة العسرة

عجيب هذا المخلوق الإنساني لا يذكر الله إلا في ساعة العسرة، ولا يثوب إلى فطرته وينزع عنها ما غشاها من شوائب وانحرافات إلا في ساعة الكربة. فإذا أمن فإما النسيان وإما الطغيان.. ذلك إلا من اهتدى فبقيت فطرته سليمة حية مستجيبة في كل آن، مجلوة دائما بجلاء الإيمان.

***

على البشرية أن تختار

إن الناس إما أن يخلصوا دينونتهم لله. وإما أن يتعبدهم الطغاة. والكفاح لتقرير ألوهية الله وحدها في الأرض، وربوبية الله وحدها في حياة البشر، هو كفاح للإنسانية وللحرية وللكرامة وللفضيلة، ولكل معنى كريم يرتفع به الإنسان على ذل القيد، ودنس المستنقع، وامتهان الكرامة، وفساد المجتمع، ودناءة الحياة!

أين التكنولوجيا من صنع الله؟

إن تركيب العين وأعصابها وكيفية إدراكها للمرئيات، أو تركيب الأذن وأجزائها وطريقة إدراكها للذبذبات، لعالم وحده يدير الرؤوس، عندما يقاس هذا الجهاز أو ذاك إلى أدق الأجهزة التي يعدها الناس من معجزات العلم في العصر الحديث! وإن كان الناس يهولهم ويروعهم ويبهرهم جهاز يصنعه الإنسان، لا يقاس في شيء إلى صنع الله. بينما هم يمرون غافلين بالبدائع الإلهية في الكون وفي أنفسهم كأنهم لا يبصرون ولا يدركون!

الحياة أعجوبة غامضة

إن تحول الطعام الذي يموت بالطهي والنار إلى دم حي في الجسم الحي، وتحول هذا الدم إلى فضلات ميتة بالاحتراق، لأعجوبة يتسع العجب منها كلما زاد العلم بها، وهي بعد كائنة في كل لحظة آناء الليل وأطراف النهار، وإن الحياة لأعجوبة غامضة مثيرة تواجه الكينونة البشرية كلها بعلامات استفهام لا جواب عليها كلها إلا أن يكون هناك إله، يهب الحياة!

القرآن.. حياة للأرواح

إن هذا القرآن يجعل من مألوفات البشر وحوادثهم المكرّرة، قضايا كونية كبرى يكشف فيها عن النواميس الإلهية في الوجود، وينشئ بها عقيدة ضخمة شاملة وتصورا كاملا لهذا الوجود، كما يجعل منها منهجا للنظر والتفكير، وحياة للأرواح والقلوب، ويقظة في المشاعر والحواس. يقظة لظواهر هذا الوجود التي تطالع الناس صباح مساء وهم غافلون عنها.

طب القرآن

إن هذا القرآن شفاء لما في الصدور بكل معنى من معاني الشفاء.. إنه يدب في القلوب فعلا دبيب الشفاء في الجسم المعلول! يدب فيها بإيقاعه ذي السلطان الخفي العجيب.

ويدب فيها بتوجيهاته التي توقظ أجهزة التلقي الفطرية، فتهتز وتتفتح وتتلقى وتستجيب، ويدب فيها بتنظيماته وتشريعاته التي تضمن أقل احتكاك ممكن بين المجموعات البشرية في الحياة اليومية. ويدب فيها بإيحاءاته المطمئنة التي تسكب الطمأنينة في القلوب إلى الله، وإلى العدل في الجزاء، وإلى غلبة الخير، وإلى حسن المصير.

عندما تتعطل أجهزة الاستقبال

هذا الكون، كون مؤمن مسلم، يعرف بارئه ويخضع له، ويسبح بحمده كل شيء فيه وكل حي - عدا بعض الأناسي! - و«الإنسان» يعيش في هذا الكون الذي تتجاوب جنباته بأصداء الإيمان والإسلام، وأصداء التسبيح والسجود. وذرات كيانه ذاته وخلاياه تشارك في هذه الأصداء، وتخضع في حركتها الطبيعة الفطرية للنواميس التي قدرها الله. فالكائن الذي لا تستشعر فطرته هذه الأصداء كلها ولا تحس إيقاع النواميس الإلهية فيها هي ذاتها، ولا تلتقط أجهزته الفطرية تلك الموجات الكونية، كائن معطلة فيه أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية، ومن ثم لا يكون هنالك سبيل إلى قلبه وعقله بالجدل، إنما يكون السبيل إلى علاجه هو محاولة تنبيه أجهزة الاستقبال والاستجابة فيه، واستجاشة كوامن الفطرة في كيانه، لعلها تتحرك، وتأخذ في العمل من جديد.

***

معركة الحق والباطل

ما كان الخلاف على مدار التاريخ بين الجاهلية والإسلام؛ ولا كانت المعركة بين الحق والطاغوت، على ألوهية الله - سبحانه - للكون؛ وتصريف أموره في عالم الأسباب والنواميس الكونية: إنما كان الخلاف وكانت المعركة على من يكون هو رب الناس، الذي يحكمهم بشرعه، ويصرفهم بأمره، ويدينهم بطاعته؟

لقد كان الطواغيت المجرمون في الأرض يغتصبون هذا الحق ويزاولونه في حياة الناس، ويذلونهم بهذا الاغتصاب لسلطان الله، ويجعلونهم عبيدا لهم من دون الله، وكانت الرسالات والرسل والدعوات الإسلامية تجاهد دائما لانتزاع هذا السلطان المغتصب من أيدي الطواغيت ورده إلى صاحبه الشرعي.. الله سبحانه.

امتحان النعمة

كثيرا من الناس يصبرون على الشدة تجلدا وإباء أن يظهر عليهم الضعف والخور، ولكن القلة هي التي تصبر على النعمة فلا تغتر ولا تبطر.

الإيمان الجاد

إن الإيمان الجاد المتمثل في العمل الصالح هو الذي يعصم النفس البشرية من اليأس الكافر في الشدة كما يعصمها من البطر الفاجر في الرخاء، وهو الذي يقيم القلب البشري على سواء في البأساء والنعماء ويربطه بالله في حاليه، فلا يتهاوى ويتهافت تحت مطارق البأساء. ولا ينتفخ ويتعالى عند ما تغمره النعماء.

***

قهر الله لعباده المخلصين

إن عباد الله المخلصين ينبغي أن يخلصوا له سبحانه، وأن يدعوا له وحده قيادهم، ويدعوا له سبحانه تنقيل خطاهم، وحين يعجزون بضعفهم البشري في أول الأمر عن اختيار هذا السلوك، يتفضل الله سبحانه فيقهرهم عليه حتى يعرفوه ويتذوقوه ويلتزموه بعد ذلك طاعة ورضًا وحبًا وشوقًا.. فيتم عليهم فضله بهذا كله.

عبرة القرون الأولي

حين تجول العين والقلب في مصارع القرون، وحين تطالع العين آثارهم ومساكنهم عن كثب، وحين يتملى الخيال الدور وقد خلت من أهلها الأُول ويتصور شخوصهم الذاهبة، وأشباحهم الهاربة، وحركاتهم وسكناتهم، وخواطرهم وأحلامهم، وهمومهم وآمالهم.. حين يتأمل هذا الحشد من الأشباح والصور والانفعالات والمشاعر.. ثم يفتح عينه فلا يرى من ذلك كله شيئا إلا الفراغ والخواء.. عندئذ يستيقظ للهوة التي تفغر فاها لتبتلع الحاضر كما ابتلعت الغابر، وعندئذ يدرك يد القدرة التي أخذت القرون الأولى، وهي قادرة على أن تأخذ ما يليها، وعندئذ يعي معنى الإنذار، والعبرة أمامه معروضة للأنظار، فما لهؤلاء القوم لا يهتدون وفي مصارع القرون ما يهدي أولي الألباب؟:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ﴾ [طه:٥٤]

* * *

سنة الله.. لابد من الشدائد

تلك سنة الله في الدعوات؛ لا بد من الشدائد، ولا بد من الكروب، حتى لا تبقى بقية من جهد ولا بقية من طاقة، ثم يجيء النصر بعد اليأس من كل أسبابه الظاهرة التي يتعلق بها الناس، يجيء النصر من عند الله، فينجو الذين يستحقون النجاة، ينجون من الهلاك الذي يأخذ المكذبين، وينجون من البطش والعسف الذي يسلطه عليهم المتجبرون، ويحل بأس الله بالمجرمين، مدمرا ماحقا لا يقفون له، ولا يصده عنهم ولي ولا نصير.

***

الحسنة مقابل السيئة

مقابلة السيئة بالحسنة تكسر شر النفوس، وتوجهها إلى الخير وتطفئ جذوة الشر، وترد نزغ الشيطان.

رحلة شاقة

إن الدعوة إلى الله ليست تجارة قصيرة الأجل، إما أن تربح ربحا معينا محددا في هذه الأرض، وإما أن يتخلى عنها أصحابها إلى تجارة أخرى أقرب ربحا وأيسر حصيلة! والذي ينهض بالدعوة إلى الله في المجتمعات الجاهلية - والمجتمعات الجاهلية هي التي تدين لغير الله بالطاعة والاتباع في أي زمان أو مكان - يجب أن يوطن نفسه على أنه لا يقوم برحلة مريحة، ولا يقوم بتجارة مادية قريبة الأجل!

إنما ينبغي له أن يستيقن أنه يواجه طواغيت يملكون القوة والمال، ويملكون استخفاف الجماهير حتى ترى الأسود أبيض والأبيض أسود! ويملكون تأليب هذه الجماهير ذاتها على أصحاب الدعوة إلى الله، باستثارة شهواتها وتهديدها بأن أصحاب الدعوة إلى الله يريدون حرمانها من هذه الشهوات!.. ويجب أن يستيقنوا أن الدعوة إلى الله كثيرة التكاليف، وأن الانضمام إليها في وجه المقاومة الجاهلية كثير التكاليف أيضًا، وأنه من ثم لا تنضم إليها - في أول الأمر - الجماهير المستضعفة، إنما تنضم إليها الصفوة المختارة في الجيل كله، التي تؤثر حقيقة هذا الدين على الراحة والسلامة، وعلى كل متاع هذه الحياة الدنيا.

استعداد القلوب للاهتداء

إن الآيات ليست هي التي تقود الناس إلى الإيمان، فللإيمان دواعيه الأصيلة في النفوس، وأسبابه المؤدية إليه من فعل هذه النفوس: ﴿قُلْ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد:٢٧].. فالله يهدي من ينيبون إليه، فالإنابة إلى الله هي التي جعلتهم أهلا لهداه. والمفهوم - إذن- أن الذين لا ينيبون هم الذين يستأهلون الضلال، فيضلهم الله، فهو استعداد القلب للهدى وسعيه إليه وطلبه، أما القلوب التي لا تتحرك إليه فهو عنها بعيد.

بالقرآن تسير ما هو أعظم من الجبال

إن طبيعة هذا القرآن لتحتوي على قوة خارقة نافذة، يحسها كل من له ذوق وبصر وإدراك للكلام، واستعداد لإدراك ما يوجه إليه ويوحي به، والذين تلقوه وتكيفوا به سيروا ما هو أضخم من الجبال، وهو تاريخ الأمم والأجيال وقطعوا ما هو أصلب من الأرض، وهو جمود الأفكار وجمود التقاليد، وأحيوا ما هو أخمد من الموتى، وهم الشعوب التي قتل روحها الطغيان والأوهام.

إشراقة الإيمان

الإيمان بالله نور يشرق في القلب، فيشرق به هذا الكيان البشري، المركب من الطينة الغليظة ومن نفخة روح الله، فإذا ما خلا من إشراق هذه النفخة، وإذا ما طمست فيه هذه الإشراقة استحال طينة معتمة. طينة من لحم ودم كالبهيمة، فاللحم والدم وحدهما من جنس طينة الأرض ومادتها، لولا تلك الإشراقة التي تنتفض فيه من روح الله، يرقرقها الإيمان ويجلوها، ويطلقها تشف في هذا الكيان المعتم، ويشف بها هذا الكيان المعتم.

نور على الطريق

الإيمان بالله نور تشرق به النفس، فترى الطريق، ترى الطريق واضحة إلى الله، لا يشوبها غبش ولا يحجبها ضباب، غبش الأوهام وضباب الخرافات، أو غبش الشهوات وضباب الأطماع، ومتى رأت الطريق سارت على هدى لا تتعثر ولا تضطرب ولا تتردد ولا تحتار.

نور تشرق به الحياة

الإيمان بالله نور تشرق به الحياة، فإذا الناس كلهم عباد متساوون، تربط بينهم آصرتهم في الله وتتمحض دينونتهم له دون سواه، فلا ينقسمون إلى عبيد وطغاة، وتربطهم بالكون كله رابطة المعرفة، معرفة الناموس المسير لهذا الكون وما فيه ومن فيه. فإذا هم في سلام مع الكون وما فيه ومن فيه.

أنوار وأنوار

الإيمان بالله نور، نور العدل، ونور الحرية، ونور المعرفة، ونور الأنس بجوار الله، والاطمئنان إلى عدله ورحمته وحكمته في السراء والضراء، ذلك الاطمئنان الذي يستتبع الصبر في الضراء والشكر في السراء على نور من إدراك الحكمة في البلاء.

اكتشف إذا كنت من الضعفاء

الضعفاء هم الضعفاء، هم الذين تنازلوا عن أخص خصائص الإنسان الكريم على الله حين تنازلوا عن حريتهم الشخصية في التفكير والاعتقاد والاتجاه وجعلوا أنفسهم تبعا للمستكبرين والطغاة. ودانوا لغير الله من عبيده واختاروها على الدينونة لله.

والضعف ليس عذرا، بل هو الجريمة فما يريد الله لأحد أن يكون ضعيفا، وهو يدعو الناس كلهم إلى حماه يعتزون به والعزة لله. وما يريد الله لأحد أن ينزل طائعا عن نصيبه في الحرية - التي هي ميزته ومناط تكريمه - أو أن ينزل كارها.

والقوة المادية - كائنة ما كانت - لا تملك أن تستعبد إنسانا يريد الحرية، ويستمسك بكرامته الآدمية. فقصارى ما تملكه تلك القوة أن تملك الجسد، تؤذيه وتعذبه وتكبله وتحبسه. أما الضمير. أما الروح. أما العقل. فلا يملك أحد حبسها ولا استذلالها، إلا أن يسلمها صاحبها للحبس والإذلال! من ذا الذي يملك أن يجعل أولئك الضعفاء تبعا للمستكبرين في العقيدة، وفي التفكير، وفي السلوك؟

من ذا الذي يملك أن يجعل أولئك الضعفاء يدينون لغير الله، والله هو خالقهم ورازقهم وكافلهم دون سواه؟

لا أحد. لا أحد إلا أنفسهم الضعيفة.

ضعف الروح قوة للطغاة

إن المستضعفين كثرة، والطواغيت قلة. فمن ذا الذي يخضع الكثرة للقلة؟ ومن ذا الذي يخضعها؟ إنما يُخضعها ضعف الروح، وسقوط الهمة، وقلة النخوة، والتنازل الداخلي عن الكرامة التي وهبها الله لبني الإنسان! إن الطغاة لا يملكون أن يستذلوا الجماهير إلا برغبة هذه الجماهير، فهي دائما قادرة على الوقوف لهم لو أرادت، فالإرادة هي التي تنقص هذه القطعان!

الخير بخير والشر بشر

الخير الأصيل لا يموت ولا يذوي، مهما زحمه الشر وأخذ عليه الطريق.. والشر كذلك لا يعيش إلا ريثما يستهلك بعض الخير المتلبس به - فقلما يوجد الشر الخالص - وعند ما يستهلك ما يلابسه من الخير فلا تبقى فيه منه بقية، فإنه يتهالك ويتهشم مهما تضخم واستطال.

إن الخير بخير! وإن الشر بشر!

التوحيد.. الخطر المحدق بالطواغيت

عقيدة التوحيد خطر على سلطان الطواغيت ومصالحهم في كل زمان، لا في زمن الجاهلية الأولى، ولكن في زمن كل جاهلية ينحرف الناس فيها عن التوحيد المطلق، في أية صورة من صور الانحراف، فيسلمون قيادهم إلى كبرائهم، وينزلون لهم عن حرياتهم وشخصياتهم، ويخضعون لأهوائهم ونزواتهم، ويتلقون شريعتهم من أهواء هؤلاء الكبراء لا من وحي الله.. عندئذ تصبح الدعوة إلى توحيد الله خطرا على الكبراء يتقونه بكل وسيلة، ومنها كان اتخاذ الآلهة أندادا لله في زمن الجاهلية الأولى، ومنها اليوم اتخاذ شرائع من عمل البشر، تأمر بما لم يأمر الله به، وتنهى عما لم ينه عنه الله. فإذا واضعوها في مكان الند لله في النفوس المضللة عن سبيل الله، وفي واقع الحياة!

* * *

معرض لآيات الله

من معجزات هذا الكتاب أنه يربط كل مشاهد الكون وكل خلجات النفس إلى عقيدة التوحيد، ويحول كل ومضة في صفحة الكون أو في ضمير الإنسان إلى دليل أو إيحاء.. وهكذا يستحيل الكون بكل ما فيه وبكل من فيه معرضا لآيات الله، تبدع فيه يد القدرة، وتتجلى آثارها في كل مشهد فيه ومنظر، وفي كل صورة فيه وظل.

***

استيقظ يا ضمير

حين يستيقظ ضمير الإنسان، ويتطلع إلى الكون من حوله، فإذا هو مسخر له، إما مباشرة، وإما بموافقة ناموسه لحياة البشر وحوائجهم، ويتأمل فيما حوله فإذا هو صديق له برحمة الله، معين بقدرة الله، ذلول له بتسخير الله.. حين يستيقظ ضمير الإنسان فيتطلع ويتأمل ويتدبر، لا بد يرتجف ويخشع ويسجد ويشكر، ويتطلع دائما إلى ربه المنعم: حين يكون في الشدة ليبدله منها يسرا، وحين يكون في الرخاء ليحفظ عليه النعماء.

الأصنام مازلت تحي بيننا

الأصنام.. ليس من الضروري أن تتمثل في تلك الصور الأولية الساذجة.. فالأصنام ليست سوى شعارات للطاغوت، يتخفى وراءها لتعبيد الناس باسمها، وضمان دينونتهم له من خلالها.. إن الصنم لم يكن ينطق أو يسمع أو يبصر.. إنما كان السادن أو الكاهن أو الحاكم يقوم من ورائها يتمتم حولها بالتعاويذ والرقى.. ثم ينطق باسمها بما يريد هو أن ينطق لتعبيد الجماهير وتذليلها!

فإذا رفعت في أي أرض وفي أي وقت شعارات ينطق باسمها الحكام والكهان، ويقررون باسمها ما لم يأذن به الله من الشرائع والقوانين والقيم والموازين والتصرفات والأعمال... فهذه هي الأصنام في طبيعتها وحقيقتها ووظيفتها! إذا رفعت «القومية» شعارا، أو رفع «الوطن» شعارا، أو رفع «الشعب» شعارا، أو رفعت «الطبقة» شعارا... ثم أريد الناس على عبادة هذه الشعارات من دون الله وعلى التضحية لها بالنفوس والأموال والأخلاق والأعراض، بحيث كلما تعارضت شريعة الله وقوانينه وتوجيهاته وتعليماته مع مطالب تلك الشعارات ومقتضياتها، نحيت شريعة الله وقوانينه وتوجيهاته وتعاليمه، ونفذت إرادة تلك الشعارات - أو بالتعبير الصحيح الدقيق:

إرادة الطواغيت الواقفة وراء هذه الشعارات - كانت هذه هي عبادة الأصنام من دون الله.. فالصنم ليس من الضروري أن يتمثل في حجر أو خشبة ولقد يكون الصنم مذهبا أو شعارا!

* * *

استفيقوا من خطر الشرك الأعظم

الذين يظنون أنفسهم في «دين الله» لأنهم يقولون بأفواههم «نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله»، ويدينون لله فعلا في شؤون الطهارة والشعائر والزواج والطلاق والميراث.. بينما هم يدينون فيما وراء هذا الركن الضيق لغير الله ويخضعون لشرائع لم يأذن بها الله - وكثرتها مما يخالف مخالفة صريحة شريعة الله - ثم هم يبذلون أرواحهم وأموالهم وأعراضهم وأخلاقهم - أرادوا أم لم يريدوا -؛ ليحققوا ما تتطلبه منهم الأصنام الجديدة، فإذا تعارض دين أو خلق أو عرض مع مطالب هذه الأصنام، نبذت أوامر الله فيها ونفذت مطالب هذه الأصنام...

الذين يظنون أنفسهم «مسلمين»وفي «دين الله» وهذا حالهم..

عليهم أن يستفيقوا لما هم فيه من الشرك العظيم!!! ﴿وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف:٤٣]

إن هذا الدين لا يحاول تغيير طبيعة البشر في هذه الأرض ولا تحويلهم خلقا آخر، ومن ثم يعترف لهم بأنه كان في صدورهم غلّ في الدنيا، وبأن هذا من طبيعة بشريتهم التي لا يذهب بها الإيمان والإسلام من جذورها، ولكنه يعالجها فقط؛ لتخف حدتها، ويتسامى بها؛ لتنصرف إلى الحب في الله، والكره في الله - وهل الإيمان إلا الحب والبغض؟ - ولكنهم في الجنة - وقد وصلت بشريتهم إلى منتهى رقيها وأدت كذلك دورها في الحياة الدنيا - ينزع أصل الإحساس بالغل من صدورهم ولا تكون إلا الأخوة الصافية الودود.. إنها درجة أهل الجنة.. فمن وجدها في نفسه غالبة في هذه الأرض، فليستبشر بأنه من أهلها، ما دام ذلك وهو مؤمن، فهذا هو الشرط الذي لا تقوم بغيره الأعمال.

***

عجل السيد البدوي

ما يزال أناس بعد أن جاءت عقيدة التوحيد وتقررت، يجعلون نصيبا من رزق الله لهم موقوفا على ما يشبه آلهة الجاهلية، ما يزال بعضهم يطلق عجلا يسميه«عجل السيد البدوي» يأكل من حيث يشاء لا يمنعه أحد، ولا ينتفع به أحد، حتى يذبح على اسم السيد البدوي لا على اسم الله!.

وما يزال بعضهم ينذرون للأولياء ذبائح يخرجونها من ذمتهم لا لله، ولا باسم الله، ولكن باسم ذلك الولي، على ما كان أهل الجاهلية يجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقهم الله، وهو حرام نذره على هذا الوجه، حرام لحمه، ولو سمي اسم الله عليه.

لأنه أُهلّ لغير الله به!.

***

كيف يغتم من يُبشر بالأنثى!!

حكمة الله، وقاعدة الحياة، اقتضت أن تنشأ الحياة من زوجين ذكر وأنثى. فالأنثى أصيلة في نظام الحياة أصالة الذكر بل ربما كانت أشد أصالة لأنها المستقر. فكيف يغتم من يبشر بالأنثى، وكيف يتواري من القوم من سوء ما بشر به ونظام الحياة لا يقوم إلا على وجود الزوجين دائما؟.

إنه انحراف العقيدة ينشئ آثاره في انحراف المجتمع وتصوراته وتقاليده.. ﴿أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل:٥٩] وما أسوأه من حكم وتقدير. ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً﴾ [النحل:٨٠]

يريد الإسلام البيت مكانا للسكينة النفسية والاطمئنان الشعوري، هكذا يريده مريحا تطمئن إليه النفس وتسكن وتأمن، سواء بكفايته المادية للسكنى والراحة، أو باطمئنان من فيه بعضهم لبعض، وبسكن من فيه كل إلى الآخر، فليس البيت مكانا للنزاع والشقاق والخصام إنما هو مبيت وسكن وأمن واطمئنان وسلام.

الذين يتوجهون إلى الله وحده، ويخلصون قلوبهم لله، لا يملك الشيطان أن يسيطر عليهم، مهما وسوس لهم فإن صلتهم بالله تعصمهم أن ينساقوا معه، وينقادا إليه، وقد يخطئون، لكنهم لا يستسلمون، فيطردون الشيطان عنهم ويتوبون إلى ربهم من قريب.

نصائح إلى الدعاة

إن الدعوة دعوة إلى سبيل الله، لا لشخص الداعي ولا لقومه، فليس للداعي من دعوته إلا أنه يؤدي واجبه لله، لا فضل له يتحدث به، لا على الدعوة ولا على من يهتدون به، وأجره بعد ذلك على الله.

والدعوة بالحكمة، والنظر في أحوال المخاطبين وظروفهم، والقدر الذي يبينه لهم في كل مرة حتى لا يثقل عليهم ولا يشق بالتكاليف قبل استعداد النفوس لها، والطريقة التي يخاطبهم بها، والتنويع في هذه الطريقة حسب مقتضياتها. فلا تستبد به الحماسة والاندفاع والغيرة فيتجاوز الحكمة في هذا كله وفي سواه.

وبالموعظة الحسنة التي تدخل إلى القلوب برفق، وتتعمق المشاعر بلطف، لا بالزجر والتأنيب في غير مُوجب، ولا بفضح الأخطاء التي قد تقع عن جهل أو حسن نية، فإن الرفق في الموعظة كثيرا ما يهدي القلوب الشاردة، ويؤلف القلوب النافرة، ويأتي بخير من الزجر والتأنيب والتوبيخ، وبالجدل بالتي هي أحسن، بلا تحامل على المخالف ولا ترذيل له وتقبيح، حتى يطمئن إلى الداعي ويشعر أن ليس هدفه هو الغلبة في الجدل، ولكن الإقناع والوصول إلى الحق، فالنفس البشرية لها كبرياؤها وعنادها، وهي لا تنزل عن الرأي الذي تدافع عنه إلا بالرفق،

حتى لا تشعر بالهزيمة، وسرعان ما تختلط على النفس قيمة الرأي وقيمتها هي عند الناس، فتعتبر التنازل عن الرأي تنازلا عن هيبتها واحترامها وكيانها. والجدل بالحسنى هو الذي يطامن من هذه الكبرياء الحساسة، ويشعر المجادل أن ذاته مصونة، وقيمته كريمة، وأن الداعي لا يقصد إلا كشف الحقيقة في ذاتها، والاهتداء إليها. في سبيل الله، لا في سبيل ذاته ونصرة رأيه وهزيمة الرأي الآخر! ولكي يطامن الداعية من حماسته واندفاعه يشير النص القرآني إلى أن الله هو الأعلم بمن ضل عن سبيله، وهو الأعلم بالمهتدين، فلا ضرورة للجاجة في الجدل إنما هو البيان والأمر بعد ذلك لله.

هذا هو منهج الدعوة ودستورها ما دام الأمر في دائرة الدعوة باللسان والجدل بالحجة.

***

نصائح إلى الدعاة (٢)

إن صاحب الدعوة لا يجوز أن يعلق قلبه وأمله وعمله بالمعرضين عن الدعوة، المعاندين، الذين لا تتفتح قلوبهم لدلائل الهدى وموحيات الإيمان.. إنما يجب أن يفرغ قلبه، وأن يوجه أمله وعمله للذين سمعوا واستجابوا.

فهؤلاء في حاجة إلى بناء كيانهم كله على القاعدة التي دخلوا الدين عليها.. قاعدة العقيدة.. وفي حاجة لإنشاء تصور لهم كامل عميق عن الوجود والحياة على أساس هذه العقيدة، وفي حاجة إلى بناء أخلاقهم وسلوكهم وبناء مجتمعهم الصغير على هذا الأساس نفسه، وهذا كله يحتاج إلى الجهد. ويستحق الجهد، فأما الواقفون على الشق الآخر، فجزاؤهم الإهمال والإعراض بعد الدعوة والبلاغ.. وحين ينمو الحق في ذاته فإن الله يجري سنته، فيقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق.

***

نصائح إلى الدعاة (٣)

أيما داعية لا يحس مشاعر الذين يدعوهم ولا يحسون مشاعره، فإنه يقف على هامش حياتهم، لا يتجاوب معهم ولا يتجاوبون معه. ومهما سمعوا من قوله فلن يحركهم للعمل بما يقول؛ لما بينه وبينهم من قطيعة في الحس والشعور.

وأيما داعية لا يصدق فعله قوله، فإن كلماته تقف على أبواب الآذان لا تتعداها إلى القلوب، مهما تكن كلماته بارعة وعباراته بليغة. فالكلمة البسيطة التي يصاحبها الانفعال، ويؤيدها العمل، هي الكلمة المثمرة التي تحرك الآخرين إلى العمل.

***

من أراد الدنيا فلا يتطلع للآخرة

من أراد أن يعيش لهذه الدنيا وحدها، فلا يتطلع إلى أعلى من الأرض التي يعيش فيها، فإن الله يعجل له حظه في الدنيا حين يشاء، ثم تنتظره في الآخرة جهنم عن استحقاق، فالذين لا يتطلعون إلى أبعد من هذه الأرض يتلطخون بوحلها ودنسها ورجسها، ويستمتعون فيها كالأنعام، ويستسلمون فيها للشهوات والنزعات، ويرتكبون في سبيل تحصيل اللذة الأرضية ما يؤدي بهم إلى جهنم.

الحياة للأرض تليق بالديدان

إن الحياة للأرض حياة تليق بالديدان والزواحف والحشرات والهوام والوحوش والأنعام، فأما الحياة للآخرة فهي الحياة اللائقة بالإنسان الكريم على الله، الذي خلقه فسواه، وأودع روحه ذلك السر الذي ينزع به إلى السماء وإن استقرت على الأرض قدماه.

إن الوالدين يندفعان بالفطرة إلى رعاية الأولاد. إلى التضحية بكل شيء حتى بالذات، وكما تمتص النابتة الخضراء كل غذاء في الحبة فإذا هي فتات، ويمتص الفرخ كل غذاء في البيضة فإذا هي قشر كذلك يمتص الأولاد كل رحيق وكل عافية وكل جهد وكل اهتمام من الوالدين فإذا هما شيخوخة فانية - إن أمهلهما الأجل - وهما مع ذلك سعيدان! فأما الأولاد فسرعان ما ينسون هذا كله، ويندفعون بدورهم إلى الأمام، إلى الزوجات والذرية.. وهكذا تندفع الحياة، ومن ثم لا يحتاج الآباء إلى توصية بالأبناء، إنما يحتاج هؤلاء إلى استجاشة وجدانهم بقوة ليذكروا واجب الجيل الذي أنفق رحيقه كله حتى أدركه الجفاف!

ليس هنالك آلهة مع الله - كما يقولون - والآلهة التي يدعونها إن هي إلا خلق من خلق الله سواء كانت نجمًا أو كوكبًا، إنسانًا أو حيوانًا، نباتًا أو جمادًا، وهذه كلها تتجه إلى الخالق حسب ناموس الفطرة

الكونية، وتخضع للإرادة التي تحكمها وتصرفها وتجد طريقها إلى الله عن طريق خضوعها لناموسه وتلبيتها لإرادته.

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾[الإسراء:٤٤]

وهو تعبير تنبض به كل ذرة في هذا الكون الكبير، وتنفض روحا حية تسبح الله، فإذا الكون كله حركة وحياة، وإذا الوجود كله تسبيحة واحدة شجية رخية، ترتفع في جلال إلى الخالق الواحد الكبير المتعال.

وإنه لمشهد كوني فريد، حين يتصور القلب. كل حصاة وكل حجر، كل حبة وكل ورقة، كل زهرة وكل ثمرة، كل نبتة وكل شجرة، كل حشرة، وكل زاحفة، كل حيوان، وكل إنسان، كل دابة على الأرض، وكل سابحة في الماء والهواء.. ومعها سكان السماء.. كلها تسبح الله وتتوجه إليه في علاه.

وإن الوجدان ليرتعش وهو يستشعر الحياة تدب في كل ما حوله مما يراه ومما لا يراه، وكلما همت يده أن تلمس شيئا، وكلما همت رجله أن تطأ شيئا.. سمعه يسبح لله، وينبض بالحياة.

***

القرآن كالروح.. لا يملك الخلق محاكاته

وكما أن الروح من الأسرار التي اختص الله بها فالقرآن من صنع الله الذي لا يملك الخلق محاكاته، ولا يملك الإنس والجن – وهما يمثلان الخلق الظاهر والخفي – أن يأتوا بمثله، ولو تظاهروا وتعاونوا في هذه المحاولة:﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء:٨٨]..

فهذا القرآن ليس ألفاظا وعبارات يحاول الإنس والجن أن يحاكوها. إنما هو كسائر ما يبدعه الله يعجز المخلوقون أن يصنعوه، هو كالروح من أمر الله لا يدرك الخلق سره الشامل الكامل، وإن أدركوا بعض أوصافه وخصائصه وآثاره.

***

حكمة نزول القرآن متفرقا

لقد جاء هذا القرآن ليربي أمة، ويقيم لها نظاما، فتحمله هذه الأمة إلى مشارق الأرض ومغاربها، وتعلم به البشرية هذا النظام وفق المنهج الكامل المتكامل، ومن ثم فقد جاء هذا القرآن مفرقا وفق الحاجات الواقعية لتلك الأمة، ووفق الملابسات التي صاحبت فترة التربية الأولى. والتربية تتم في الزمن الطويل، وبالتجربة العملية في الزمن الطويل، جاء ليكون منهجا عمليا يتحقق جزءا جزءا في مرحلة الإعداد، لا فقها نظريا ولا فكرة تجريدية تعرض للقراءة والاستمتاع الذهني! وتلك حكمة نزوله متفرقا، لا كتابا كاملا منذ اللحظة الأولى.

الفارق بين الإنسان والحيوان

إن الفارق الرئيسي بين الإنسان والحيوان: أن للإنسان إرادةً وهدفًا وتصورًا خاصًا للحياة يقوم على أصولها الصحيحة، المتلقاة من الله خالق الحياة، فإذا فقد هذا كله فقد أهم خصائص الإنسان المميزة لجنسه، وأهم المزايا التي من أجلها كرّمه الله.

أعلنت الاستسلام لله

فليفكر الإنسان وليدبر، ولكن ليشعر أنه إنما يفكر بتيسير الله، ويدبر بتوفيق الله، وأنه لا يملك إلا ما يمده الله به من تفكير وتدبير، ولن يدعو هذا إلى كسل أو تراخ، أو ضعف أو فتور بل على العكس يمده بالثقة والقوة والاطمئنان والعزيمة، فإذا انكشف ستر الغيب عن تدبير لله غير تدبيره، فليتقبل قضاء الله بالرضا والطمأنينة والاستسلام. لأنه الأصل الذي كان مجهولا له فكشف عنه الستار.

هذا هو المنهج الذي يأخذ به الإسلام قلب المسلم، فلا يشعر بالوحدة والوحشة وهو يفكر ويدبر، ولا يحس بالغرور والتبطر وهو يفلح وينجح، ولا يستشعر القنوط واليأس، وهو يفشل ويخفق، بل يبقى في كل أحواله متصلا بالله، قويا بالاعتماد عليه، شاكرا لتوفيقه إياه، مسلما بقضائه وقدره، غير متبطر ولا قنوط.

* * *

الباقيات الصالحات

إن القيم الحقيقية ليست هي المال، وليست هي الجاه، وليست هي السلطان. كذلك ليست هي اللذائذ والمتاع في هذه الحياة.. إن هذه كلها قيم زائفة وقيم زائلة.

والإسلام لا يحرم الطيب منها، ولكنه لا يجعل منها غاية لحياة الإنسان. فمن شاء أن يتمتع بها فليتمتع، ولكن ليذكر الله الذي أنعم بها، وليشكره على النعمة بالعمل الصالح، فالباقيات الصالحات خير وأبقى.

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ، فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾

[الكهف:٢٩]

بهذه العزة، وبهذه الصراحة، وبهذه الصرامة، فالحق لا ينثني ولا ينحني، إنما يسير في طريقه قيما لا عوج فيه، قويا لا ضعف فيه، صريحا لا مداورة فيه. فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. ومن لم يعجبه الحق فليذهب، ومن لم يجعل هواه تبعا لما جاء من عند الله فلا مجاملة على حساب العقيدة، ومن لم يحن هامته ويطامن من كبريائه أمام جلال الله فلا حاجة بالعقيدة إليه.

﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴾

[طه:١٩،٢٠]

وقعت المعجزة الخارقة التي تقع في كل لحظة، ولكن الناس لا ينتبهون إليها، وقعت معجزة الحياة، فإذا العصا حية تسعى، وكم من ملايين الذرات الميتة أو الجامدة كالعصا تتحول في كل لحظة إلى خلية حية ولكنها لا تبهر الإنسان كما يبهره أن تتحول عصا موسى حية تسعى! ذلك أن الإنسان أسير حواسه، وأسير تجاربه، فلا يبعد كثيرا في تصوراته عما تدركه حواسه، وانقلاب العصا حية تسعى ظاهرة حسية تصدم حسه فينتبه لها بشدة، أما الظواهر الخفية لمعجزة الحياة الأولى، ومعجزات الحياة التي تدب في كل لحظة فهي خفية قلما يلتفت إليها، وبخاصة أن الألفة تفقدها جدتها في حسه، فيمر عليها غافلًا أو ناسيًا.

***

الطريق إلى النصر

ما يتحقق النصر في عالم الواقع إلا بعد تمامه في عالم الضمير، وما يستعلي أصحاب الحق في الظاهر إلا بعد أن يستعلوا بالحق في الباطن.. إن للحق والإيمان حقيقة متى تجسمت في المشاعر أخذت طريقها فاستعلنت ليراها الناس في صورتها الواقعية، فأما إذا ظل الإيمان مظهرا لم يتجسم في القلب، والحق شعارا لا ينبع من الضمير، فإن الطغيان والباطل قد يغلبان، لأنهما يملكان قوة مادية حقيقية لا مقابل لها ولا كفاء في مظهر الحق والإيمان..

يجب أن تتحقق حقيقة الإيمان في النفس وحقيقة الحق في القلب فتصبحا أقوى من حقيقة القوى المادية التي يستعلي بها الباطل ويصول بها الطغيان ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقى﴾ [طه:١٢٣].

فهو في أمان من الضلال والشقاء باتباع هدى الله، وهما ينتظران خارج عتبات الجنة، ولكن الله يقي منهما من اتبع هداه، والشقاء ثمرة الضلال، ولو كان صاحبه غارقا في المتاع، فهذا المتاع ذاته شقوة. شقوة في الدنيا وشقوة في الآخرة، وما من متاع حرام، إلا وله غصة تعقبه، وعقابيل تتبعه، وما يضل الإنسان عن هدى الله، إلا ويتخبط في القلق والحيرة والتكفؤ والاندفاع من طرف إلى طرف، لا يستقر ولا يتوازن في

خطاه، والشقاء قرين التخبط ولو كان في المرتع الممرع! ثم الشقوة الكبرى في دار البقاء. ومن اتبع هدى الله فهو في نجوة من الضلال والشقاء في الأرض، وفي ذلك عوض عن الفردوس المفقود، حتى يؤوب إليه في اليوم الموعود.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾ [طه:١٢٤]

الحياة المقطوعة الصلة بالله ورحمته الواسعة، ضنك مهما يكن فيها من سعة ومتاع، إنه ضنك الانقطاع عن الاتصال بالله والاطمئنان إلى حماه. ضنك الحيرة والقلق والشك، ضنك الحرص والحذر: الحرص على ما في اليد والحذر من الفوت، ضنك الجري وراء بارق المطامع والحسرة على كل ما يفوت، وما يشعر القلب بطمأنينة الاستقرار إلا في رحاب الله، وما يحس راحة الثقة إلا وهو مستمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها.. إن طمأنينة الإيمان تضاعف الحياة طولا وعرضا وعمقا وسعة، والحرمان منه شقوة لا تعدلها شقوة الفقر والحرمان.

* * *

القرآن معجزة لا تنقضي

إن معجزة القرآن معجزة مفتوحة للأجيال، وليست كالخوارق المادية التي تنقضي في جيل واحد، ولا يتأثر بها إلّا الذين يرونها من ذلك الجيل.

﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥]

والابتلاء بالشر مفهوم أمره؛ ليتكشف مدى احتمال المبتلى، ومدى صبره على الضر، ومدى ثقته في ربه، ورجائه في رحمته، فأما الابتلاء بالخير فهو في حاجة إلى بيان..

إن الابتلاء بالخير أشد وطأة، وإن خيل للناس أنه دون الابتلاء بالشر.. إن كثيرين يصمدون للابتلاء بالشر ولكن القلة القليلة هي التي تصمد للابتلاء بالخير.

كثيرون يصبرون على الابتلاء بالمرض والضعف، ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الابتلاء بالصحة والقدرة، ويكبحون جماح القوة الهائجة في كيانهم الجامحة في أوصالهم.

كثيرون يصبرون على الفقر والحرمان فلا تتهاوى نفوسهم ولا تذل. ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الثراء والعطاء، وما يغريان به من متاع، وما يثير أنه من شهوات وأطماع!

كثيرون يصبرون على التعذيب والإيذاء فلا يخيفهم، ويصبرون على التهديد والوعيد فلا يرهبهم، ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الإغراء بالرغائب والمناصب والمتاع والثراء! كثيرون يصبرون على الكفاح والجراح ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الدعة والمراح. ثم لا يصابون بالحرص الذي يذل أعناق الرجال، وبالاسترخاء الذي يقعد الهمم ويذلل الأرواح! إن الابتلاء بالشدة قد يثير الكبرياء، ويستحث المقاومة ويجند الأعصاب، فتكون القوى كلها معبأة لاستقبال الشدة والصمود لها، أما الرخاء فيرخي الأعصاب وينيمها ويفقدها القدرة على اليقظة والمقاومة! لذلك يجتاز الكثيرون مرحلة الشدة بنجاح، حتى إذا جاءهم الرخاء سقطوا في الابتلاء! وذلك شأن البشر.

***

استحياء القلوب

إن طريق الدعوات ليس هينا لينا، واستجابة النفوس للدعوات ليست قريبة يسيرة، فهناك ركام من الباطل والضلال والتقاليد والعادات، والنظم والأوضاع، يجثم على القلوب، ولا بد من إزالة هذا الركام.

ولا بد من استحياء القلوب بكل وسيلة، ولا بد من لمس جميع المراكز الحساسة، ومن محاولة العثور على العصب الموصل، ولمسة واحدة قد تحول الكائن البشري تحويلا تاما في لحظة متى أصابت اللمسة موضعها، وإن الإنسان ليدهش أحيانا وهو يحاول ألف محاولة، ثم إذا لمسة عابرة تصيب موضعها في الجهاز البشري فينتفض كله بأيسر مجهود، وقد أعيا من قبل على كل الجهود!

ثمرة الإيمان

العمل الصالح هو ثمرة الإيمان التي تثبت وجوده وحيويته في الضمير. والإسلام بالذات عقيدة متحركة متى تم وجودها في الضمير تحولت إلى عمل صالح هو الصورة الظاهرة للإيمان المضمر.. والثمرة اليانعة للجذور الممتدة في الأعماق.

إيمان+ عمل = وراثة الأرض

حيثما اجتمع إيمان القلب ونشاط العمل في أمة فهي الوارثة للأرض في أية فترة من فترات التاريخ، ولكن حين يفترق هذان العنصران فالميزان يتأرجح، وقد تقع الغلبة للآخذين بالوسائل المادية حين يهمل الأخذ بها من يتظاهرون بالإيمان، وحين تفرغ قلوب المؤمنين من الإيمان الصحيح الدافع إلى العمل الصالح، وإلى عمارة الأرض، والقيام بتكاليف الخلافة التي وكلها الله إلى هذا الإنسان.

* * *

التمسك برحمة الله

من مسه الضر في فتنة من الفتن، وفي ابتلاء من الابتلاءات، فليثبت ولا يتزعزع، وليستبق ثقته برحمة الله وعونه، وقدرته على كشف الضراء، وعلى العوض والجزاء.

فأما من يفقد ثقته في نصر الله في الدنيا والآخرة ويقنط من عون الله له في المحنة حين تشتد المحنة، فدونه فليفعل بنفسه ما يشاء وليذهب بنفسه كل مذهب، فما شيء من ذلك بمبدل ما به من البلاء.

اليأس زيادة للشقاء

الذي ييأس في الضر من عون الله يفقد كل نافذة مضيئة، وكل نسمة رخية، وكل رجاء في الفرج، ويستبد به الضيق، ويثقل على صدره الكرب، فيزيد هذا كله من وقع الكرب والبلاء، فمن كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بحبل إلى السماء يتعلق به أو يختنق، ثم ليقطع الحبل فيسقط أو ليقطع النفس فيختنق، ثم لينظر هل ينقذه تدبيره ذاك مما يغيظه!

***

قلب المؤمن

إن قلب المؤمن يستشعر يد الله عليه، ويحس آلاءه في كل نفس وكل نبضة.. ومن ثم يستصغر كل عباداته، ويستقل كل طاعاته، إلى جانب آلاء الله ونعمائه، كذلك هو يستشعر بكل ذرة فيه جلال الله وعظمته، ويرقب بكل مشاعره يد الله في كل شيء من حوله.. ومن ثم يشعر بالهيبة، ويشعر بالوجل، ويشفق أن يلقى الله وهو مقصر في حقه، لم يوفه حقه عبادة وطاعة ولم يقارب أياديه عليه معرفة وشكرًا.

نافذة الأمل

لا سبيل إلى احتمال البلاء إلا بالرجاء في نصر الله، ولا سبيل إلى الفرج إلا بالتوجه إلى الله، ولا سبيل إلى الاستعلاء على الضر، والكفاح للخلاص إلا بالاستعانة بالله، وكل حركة يائسة لا ثمرة لها ولا نتيجة إلا زيادة الكرب، ومضاعفة الشعور به، والعجز عن دفعه بغير عون الله.. فليستبق المكروب تلك النافذة المضيئة التي تنسم عليه من روح الله ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ﴾ [المؤمنون:٢]

تستشعر قلوبهم رهبة الموقف في الصلاة بين يدي الله، فتسكن وتخشع، فيسري الخشوع منها إلى الجوارح والملامح والحركات، ويغشى أرواحهم جلال الله في حضرته، فتختفي من أذهانهم جميع الشواغل، ولا تشتغل بسواه وهم مستغرقون في الشعور به مشغولون بنجواه، ويتوارى عن حسهم في تلك الحضرة القدسية كل ما حولهم وكل ما بهم، فلا يشهدون إلا الله، ولا يحسون إلا إياه، ولا يتذوقون إلا معناه، ويتطهر وجدانهم من كل دنس، وينفضون عنهم كل شائبة فما يضمون جوانحهم على شيء من هذا مع جلال الله.. عندئذ تتصل الذرة التائهة بمصدرها، وتجد الروح الحائرة طريقها، ويعرف القلب الموحش مثواه، وعندئذ تتضاءل القيم والأشياء والأشخاص إلا ما يتصل منها بالله.

الله مدبر الكون..فكيف لا نجعله مدبرا للدنيا؟

جعل الإسلام التشريع للحياة البشرية جزءا من الناموس الكوني، تتولاه اليد التي تدبر الكون كله وتنسق أجزاءه جميعا. والبشر جزء من هذا الكون خاضع لناموسه الكبير فأولى أن يشرع لهذا الجزء من يشرع للكون كله، ويدبره في تناسق عجيب. بذلك لا يخضع نظام البشر للأهواء فيفسد ويختل.

﴿أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبصارَ وَالْأَفْئِدَةَ. قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ﴾

[المؤمنون:٧٨]

إن مجرد معرفة طبيعة هذه الحواس والقوى وطريقة عملها، يعد كشفا معجزا في عالم البشر. فكيف بخلقها وتركيبها على هذا النحو المتناسق مع طبيعة الكون الذي يعيش فيه الإنسان ذلك التناسق الملحوظ الذي لو اختلت نسبة واحدة من نسبه في طبيعة الكون أو طبيعة الإنسان لفقد الاتصال، فما استطاعت أذن أن تلتقط صوتا، ولا استطاعت عين أن تلتقط ضوءا. ولكن القدرة المدبرة نسقت بين طبيعة الإنسان وطبيعة الكون الذي يعيش فيه، فتم هذا الاتصال. غير أن الإنسان لا يشكر على النعمة: ﴿قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ﴾.. والشكر يبدأ بمعرفة واهب النعمة، وتمجيده بصفاته، ثم عبادته وحده ﴿اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾

[النور:٣٥]

ما يكاد النص العجيب يتجلى حتى يفيض النور الهادئ الوضيء، فيغمر الكون كله، ويفيض على المشاعر والجوارح، وينسكب في الحنايا والجوانح وحتى يسبح الكون كله في فيض النور الباهر وحتى تعانقه وترشفه العيون والبصائر وحتى تنزاح الحجب، وتشف القلوب، وترف الأرواح، ويسبح كل شيء في الفيض الغامر، ويتطهر كل شيء في بحر النور، ويتجرد كل شيء من كثافته وثقله، فإذا هو انطلاق ورفرفة، ولقاء ومعرفة، وامتزاج وألفة، وفرح وحبور. وإذا الكون كله بما فيه ومن فيه نور طليق من القيود والحدود، تتصل فيه السماوات بالأرض، والأحياء بالجماد، والبعيد بالقريب وتلتقي فيه الشعاب والدروب، والطوايا والظواهر، والحواس والقلوب..

***

طريق الدعوة ليس مفروشا بالورد

لو كانت الدعوات سهلة ميسورة، تسلك طرقا ممهدة مفروشة بالأزهار، ولا يبرز لها في الطريق خصوم ومعارضون، ولا يتعرض لها المكذبون والمعاندون، لسهل على كل إنسان أن يكون صاحب دعوة، ولاختلطت دعوات الحق ودعاوى الباطل، ووقعت البلبلة والفتنة. ولكن بروز الخصوم والأعداء للدعوات؛ هو الذي يجعل الكفاح لانتصارها حتما مقضيا، ويجعل الآلام والتضحيات لها وقودا، فلا يكافح ويناضل، ويحتمل الآلام والتضحيات إلا أصحاب دعوة الحق الجادون المؤمنون، الذين يؤثرون دعوتهم على الراحة والمتاع، وأعراض الحياة الدنيا، بل على الحياة نفسها حين تقتضيهم دعوتهم أن يستشهدوا في سبيلها، ولا يثبت على الكفاح المرير إلا أصلبهم عودا، وأشدهم إيمانا، وأكثرهم تطلعا إلى ما عند الله واستهانة بما عند الناس.. عندئذ تتميز دعوة الحق من دعاوى الباطل. وعندئذ تمحص الصفوف فيتميز الأقوياء من الضعفاء.

***

لابد للحق من أعداء

بُروز المجرمين في طريق الأنبياء أمر طبيعي، فدعوة الحق إنما تجيء في أوانها لعلاج فساد واقع في الجماعة أو في البشرية. فساد في القلوب، وفساد في النظم، وفساد في الأوضاع، ووراء هذا الفساد يكمن المجرمون، الذين ينشئون الفساد من ناحية، ويستغلونه من ناحية. والذين تتفق مشاربهم مع هذا الفساد، وتتنفس شهواتهم في جوه الوبيء، الذين يجدون فيه سندا للقيم الزائفة التي يستندون هم في وجودهم إليها.. فطبيعي إذن أن يبرزوا للأنبياء وللدعوات دفاعا عن وجودهم، واستبقاء للجو الذي يملكون أن يتنفسوا فيه، وبعض الحشرات يختنق برائحة الأزهار العبقة، ولا يستطيع الحياة إلا في المقاذر، وبعض الديدان يموت في الماء الطاهر الجاري، ولا يستطيع الحياة إلا في المستنقع الآسن، وكذلك المجرمون.. فطبيعي إذن أن يكونوا أعداء لدعوة الحق، يستميتون في كفاحها، وطبيعي أن تنتصر دعوة الحق في النهاية؛ لأنها تسير مع خط الحياة، وتتجه إلى الأفق الكريم الوضيء الذي تتصل فيه بالله، والذي تبلغ عنده الكمال المقدر لها كما أراد الله.

* * *

ما أرحب الحياة في الكون

حين يعيش الإنسان في هذا الكون مفتوح العين والقلب، مستيقظ الحس والروح، موصول الفكر والخاطر فإن حياته ترتفع عن ملابسات الأرض الصغيرة، وشعوره بالحياة يتسامى ويتضاعف معا، وهو يحس في كل لحظة أن آفاق الكون أفسح كثيرا من رقعة هذه الأرض، وأن كل ما يشهده صادر عن إرادة واحدة، مرتبط بناموس واحد، متجه إلى خالق واحد وإن هو إلا واحد من هذه المخلوقات الكثيرة المتصلة بالله ويد الله في كل ما حوله، وكل ما تقع عليه عينه، وكل ما تلمسه يداه.

إن شعورا من التقوى، وشعورا من الأنس، وشعورا من الثقة لتمتزج في حسه، وتفيض على روحه، وتعمر عالمه، فتطبعه بطابع خاص من الشفافية والمودة والطمأنينة في رحلته على هذا الكوكب حتى يلقى الله.

وهو يقضي هذه الرحلة كلها في مهرجان من صنع الله وعلى مائدة من يد الصانع المدبر الجميل التنسيق.

يقظة الشعوب

الطغيان لا يخشى شيئا كما يخشى يقظة الشعوب، وصحوة القلوب، ولا يكره أحدا كما يكره الداعين إلى الوعي واليقظة، ولا ينقم على أحدكما ينقم على من يهزون الضمائر الغافية، ومن ثم ترى فرعون يهيج على موسى ويثور، عند ما يمس بقوله هذا أوتار القلوب، فينهي الحوار معه بالتهديد الغليظ بالبطش الصريح، الذي يعتمد عليه الطغاة عند ما يسقط في أيديهم وتخذلهم البراهين

يا لله! يا لروعة الإيمان إذ يشرق في الضمائر، وإذ يفيض على الأرواح، وإذ يكسب الطمأنينة في النفوس.

وإذ يرتفع بسلالة الطين إلى أعلى عليين، وإذ يملأ القلوب بالغنى والذخر والوفر، فإذا كل ما في الأرض تافه حقير زهيد.

* * *

القرآن.. خطاب القلوب الحية

القرآن كتاب يخاطب القلب، أول ما يخاطب ويسكب نوره وعطره في القلب المفتوح، الذي يتلقاه بالإيمان واليقين. وكلما كان القلب نديا بالإيمان زاد تذوقه لحلاوة القرآن وأدرك من معانيه وتوجيهاته ما لا يدركه منه القلب الصلد الجاف واهتدى بنوره إلى ما لا يهتدي إليه الجاحد الصادف، وانتفع بصحبته ما لا ينتفع القارئ المطموس!

وإن الإنسان ليقرأ الآية أو السورة مرات كثيرة، وهو غافل أو عجول، فلا تنض له بشيء، وفجأة يشرق النور في قلبه، فتفتح له عن عوالم ما كانت تخطر له ببال، وتصنع في حياته صنع المعجزة في تحويلها من منهج إلى منهج، ومن طريق إلى طريق.

مفتاح القرآن

إن في القرآن كنوزا ضخمة من الهدى والمعرفة والحركة والتوجيه، والإيمان هو مفتاح هذه الكنوز، ولن تفتح كنوز القرآن إلا بمفتاح الإيمان. والذين آمنوا حق الإيمان حققوا الخوارق بهذا القرآن، فأما حين أصبح القرآن كتابا يترنم المترنمون بآياته، فتصل إلى الآذان، ولا تتعداها إلى القلوب، فإنه لم يصنع شيئا، ولم ينتفع به أحد.. لقد ظل كنزا بلا مفتاح!

خرافة الرقم ١٣

حتى هذه اللحظة ترى الذين يهربون من الإيمان بالله، ويستنكفون أن يكلوا الغيب إليه، لأنهم - بزعمهم - قد انتهوا إلى حد من العلم لا يليق معه أن يركنوا إلى خرافة الدين! - هؤلاء الذين لا يؤمنون بالله ولا بدينه ولا بغيبه.. نراهم يعلقون أهمية ضخمة على رقم ١٣، وعلى مرور قط أسود يقطع الطريق أمامهم، وعلى إشعال أكثر من لفافتين بعود ثقاب واحد.. إلى آخر هذه الخرافات الساذجة. ذلك أنهم يعاندون حقيقة الفطرة.

وهي جوعتها إلى الإيمان، وعدم استغنائها عنه، وركونها إليه في تفسير كثير من حقائق هذا الكون التي لم يصل إليها علم الإنسان وبعضها لن يصل إليه في يوم من الأيام، لأنه أكبر من الطاقة البشرية، ولأنه خارج عن اختصاص الإنسان، زائد على مطالب خلافته في هذه الأرض، التي زود على قدرها بالمواهب والطاقات!

***

تفرد المنهج القرآني

المنهج القرآني منهج فريد في إعادة إنشاء النفوس، وتركيبها وفق نسق الفطرة الخالصة، حيث تجدها متسقة مع الكون الذي تعيش فيه، متمشية مع السنن التي تحكم هذا الكون - في يسر وبساطة، بلا تكلف ولا تعمل، ومن ثم تستشعر في أعماقها السّلام والطمأنينة الكبرى لأنها تعيش في كون لا تصطدم مع قوانينه وسننه ولا تعاديه ولا يعاديها متى اهتدت إلى مواضع اتصالها به، وعرفت أن ناموسها هو ناموسه، وهذا التناسق بين النفس والكون، وذلك السّلام الأكبر بين القلب البشري والوجود الأكبر ينبع منه السّلام بين الجماعة، والسّلام بين البشر، وتفيض منه الطمأنينة والاستقرار.. وهذه هي الرحمة في أشمل صورها ومعانيها.. ﴿وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ [الرعد:٢٢]

هذا هو الصبر كذلك، وهو أشد مؤنة من مجرد الصبر على الإيذاء والسخرية، إنه الاستعلاء على كبرياء النفس، ورغبتها في دفع السخرية، ورد الأذى، والشفاء من الغيظ، والبرد بالانتقام! ثم درجة أخرى بعد ذلك كله درجة السماحة الراضية. التي ترد القبيح بالجميل، وتقابل الجاهل الساخر بالطمأنينة والهدوء وبالرحمة والإحسان، وهو أفق من العظمة لا يبلغه إلا المؤمنون الذين يعاملون الله فيرضاهم ويرضونه، فيلقون ما يلقون من الناس راضين مطمئنين.

إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا»

ما حدث قط في تاريخ البشرية أن استقامت جماعة على هدى الله إلا منحها القوة والمنعة والسيادة في نهاية المطاف بعد إعدادها لحمل هذه الأمانة. أمانة الخلافة في الأرض وتصريف الحياة.

وإن الكثيرين ليشفقون من اتباع شريعة الله والسير على هداه. يشفقون من عداوة أعداء الله ومكرهم، ويشفقون من تألب الخصوم عليهم، ويشفقون من المضايقات الاقتصادية وغير الاقتصادية! وإن هي إلا أوهام كأوهام قريش يوم قالت لرسول الله ﷺ: «**إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا**» [القصص:٥٧].

فلما اتبعت هدى الله سيطرت على مشارق الأرض ومغاربها في ربع قرن أو أقل.

***

لا يبقى صامدا إلا قوي العود

النفس تصهرها الشدائد فتنفي عنها الخبث، وتستجيش كامن قواها المذخورة فتستيقظ وتتجمع، وتطرقها بعنف وشدة فيشتد عودها ويصلب ويصقل، وكذلك تفعل الشدائد بالجماعات، فلا يبقى صامدًا إلا أصلبها عودًا وأقواها طبيعة، وأشدها اتصالًا بالله، وثقة فيما عنده من الحسنيين: النصر أو الأجر، وهؤلاء هم الذين يسلّمون الراية في النهاية، مؤتمنين عليها بعد الاستعداد والاختبار.

إن الإيمان بالله كسب، كسب في ذاته، والأجر عليه بعد ذلك فضل من الله، إنه طمأنينة في القلب واستقامة على الطريق، وثبات على الأحداث وثقة بالسند، واطمئنان للحمى، ويقين بالعاقبة، وإن هذا في ذاته لهو الكسب وهو هو الذي يخسره الكافرون. ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [التوبة:٦٩]

﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم:٧]

الغفلة عن الآخرة تجعل كل مقاييس الغافلين تختل، وتؤرجح في أكفهم ميزان القيم، فلا يملكون تصور الحياة وأحداثها وقيمها تصورا

صحيحا ويظل علمهم بها ظاهرا سطحيا ناقصا، لأن حساب الآخرة في ضمير الإنسان يغير نظرته لكل ما يقع في هذه الأرض، فحياته على الأرض إن هي إلا مرحلة قصيرة من رحلته الطويلة في الكون، ونصيبه في هذه الأرض إن هو إلا قدر زهيد من نصيبه الضخم في الوجود. والأحداث والأحوال التي تتم في هذه الأرض إن هي إلا فصل صغير من الرواية الكبيرة. ولا ينبغي أن يبني الإنسان حكمه على مرحلة قصيرة من الرحلة الطويلة، وقدر زهيد من النصيب الضخم، وفصل صغير من الرواية الكبيرة!

لا يلتقي إنسان يؤمن بالآخرة ويحسب حسابها، مع آخر يعيش لهذه الدنيا وحدها ولا ينتظر ما وراءها، لا يلتقي هذا وذاك في تقدير أمر واحد من أمور هذه الحياة، ولا قيمة واحدة من قيمها الكثيرة، ولا يتفقان في حكم واحد على حادث أو حالة أو شأن من الشؤون، فلكل منهما ميزان، ولكل منهما زاوية للنظر، ولكل منهما ضوء يرى عليه الأشياء والأحداث والقيم والأحوال.

***

هذا هو طريق العقيدة

توحيد لله، وشعور برقابته، وتطلع إلى ما عنده، وثقة في عدله، وخشية من عقابه، ثم انتقال إلى دعوة الناس وإصلاح حالهم، وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، والتزود قبل ذلك كله للمعركة مع الشر، بالزاد الأصيل. زاد العبادة لله والتوجه إليه بالصلاة، ثم الصبر على ما يصيب الداعية إلى الله، من التواء النفوس وعنادها، وانحراف القلوب وإعراضها، ومن الأذى تمتد به الألسنة وتمتد به الأيدي، ومن الابتلاء في المال والابتلاء في النفس عند الاقتضاء..﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان:١٧] .. وعزم الأمور: قطع الطريق على التردد فيها بعد العزم والتصميم.

العروة الوثقى هي الصلة الوثيقة الثابتة المطمئنة بين قلب المؤمن المستسلم وربه، هي الطمأنينة إلى كل ما يأتي به قدر الله في رضى وفي ثقة وفي قبول، طمأنينة تحفظ للنفس هدوءها وسكينتها ورباطة جأشها في مواجهة الأحداث، وفي الاستعلاء على السراء فلا تبطر، وعلى الضراء فلا تصغر وعلى المفاجئات فلا تذهل وعلى اللأواء في طريق الإيمان، والعقبات تتناثر فيه من هنا ومن هناك.

إنها الإسلام الاستسلام، الاستسلام لمشيئة الله وقدره والاستعداد

ابتداء لطاعة أمره ونهيه ولاتباع المنهج الذي يقرره دون التلفت إلى أي توجيه آخر، وإلى أي اتجاه، ودون اعتماد كذلك على سواه، وهو الشعور ابتداء بأن البشر في هذه الأرض خاضعون للناموس الإلهي الواحد الذي يصرّفهم ويصرّف الأرض... وهو اليقين بأنهم ليس لهم من الأمر شيء إلا اتباع ما يأمرهم به الله والانتهاء عما ينهاهم عنه والأخذ بالأسباب التي يسرها لهم، وارتقاب النتائج التي يقدرها الله.. هذه هي القاعدة، ثم تقوم عليها الشرائع والقوانين، والتقاليد والأوضاع، والآداب والأخلاق، بوصفها الترجمة العملية لمقتضيات العقيدة المستكنة في الضمير والآثار الواقعية لاستسلام النفس لله، والسير على منهجه في الحياة..

إن الإسلام عقيدة، تنبثق منها شريعة. يقوم على هذه الشريعة نظام، وهذه الثلاثة مجتمعة مترابطة متفاعلة هي الإسلام

لا يملك الإنسان أن يستمد آدابه وأخلاقه من معين، ويستمد شرائعه وقوانينه من معين آخر، ويستمد أوضاعه الاجتماعية أو الاقتصادية من معين ثالث، ويستمد فنونه وتصوراته من معين رابع.. فهذا الخليط لا يكوّن إنسانا له قلب، إنما يكون مزقا وأشلاء ليس لها قوام! وصاحب العقيدة لا يملك أن تكون له عقيدة حقا، ثم يتجرد من مقتضياتها وقيمها الخاصة في موقف واحد من مواقف حياته كلها، صغيرًا كان هذا الموقف أم كبيرًا، لا يملك أن يقول كلمة، أو يتحرك

حركة، أو ينوي نية، أو يتصور تصورا، غير محكوم في هذا كله بعقيدته - إن كانت هذه العقيدة حقيقة واقعة في كيانه - لأن الله لم يجعل له سوى قلب واحد، يخضع لناموس واحد، ويستمد من تصور واحد، ويزن بميزان واحد.

حين نرانا ضعفنا مرة، أو زلزلنا مرة، أو فزعنا مرة، أو ضقنا مرة بالهول والخطر والشدة والضيق، فعلينا ألا نيأس من أنفسنا، وألا نهلع ونحسب أننا هلكنا أو أننا لم نعد نصلح لشيء عظيم أبدا! ولكن علينا في الوقت ذاته ألا نقف إلى جوار ضعفنا؛ لأنه من فطرتنا البشرية! ونصر عليه لأنه يقع لمن هم خير منا! هنالك العروة الوثقى. عروة السماء. وعلينا أن نستمسك بها لننهض من الكبوة، ونسترد الثقة والطمأنينة، ونتخذ من الزلزال بشيرا بالنصر، فنثبت ونستقر، ونقوى ونطمئن، ونسير في الطريق.

نور الله واحد متصل شامل وما عداه ظلمات تتعدد وتختلف، وما يخرج الناس من نور الله إلا ليعيشوا في ظلمة من الظلمات، أو في الظلمات مجتمعة وما ينقذهم من الظلام إلا نور الله الذي يشرق في قلوبهم، ويغمر أرواحهم، ويهديهم إلى فطرتهم، وهي فطرة هذا الوجود. ورحمة الله بهم وصلاة الملائكة ودعاؤها لهم، هي التي تخرجهم من الظلمات إلى النور حين تتفتح قلوبهم للإيمان.

الإرادة والإدراك والمحاولة وحمل التبعة.. هذه هي ميزة هذا

الإنسان على كثير من خلق الله. وهي هي مناط التكريم الذي أعلنه الله في الملأ الأعلى، وهو يسجد الملائكة لآدم. وأعلنه في قرآنه الباقي وهو يقول:

﴿لَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء:٧٠].. فليعرف الإنسان مناط تكريمه عند الله. ولينهض بالأمانة التي اختارها والتي عرضت على السماوات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها، وأشفقن منها...!

***

نور أنا أراه!!

لا يحتاج القلب المفتوح الواعي الموصول بالله إلى علم دقيق بمواقع النجوم في السماء، وأحجامها ونسبها، ونسب الفضاء حولها، وطرق سيرها في مداراتها، وعلاقة بعضها ببعض في أحجامها وأوضاعها وحركاتها... لا يحتاج القلب المفتوح الواعي الموصول بالله إلى علم دقيق بهذا كله ليستشعر الروعة والرهبة أمام هذا الخلق الهائل الجميل العجيب، فحسبه إيقاع هذه المشاهد بذاتها على أوتاره، حسبه مشهد النجوم المتناثرة في الليلة الظلماء، حسبه مشهد النور الفائض في الليلة القمراء، حسبه الفجر المشقشق بالنور الموحي بالتنفس والانطلاق، حسبه الغروب الزاحف بالظلام الموحي بالوداع والانتهاء، بل حسبه هذه الأرض وما فيها من مشاهد لا تنتهي ولا يستقصيها سائح يقضي عمره في السياحة والتطلع والتملي.. بل حسبه زهرة واحدة لا ينتهي التأمل في ألوانها وأصباغها وتشكيلها وتنسيقها.

إن الأرض كلها لا تبلغ أن تكون ذرة صغيرة في بناء الكون، والإنسان في هذه الأرض خليقة صغيرة هزيلة ضعيفة بالقياس إلى حجم هذه الأرض، وبالقياس إلى ما فيها من قوى ومن خلائق حية وغير حية، لا يعد الإنسان من ناحية حجمه ووزنه وقدرته المادية شيئا

إلى جوارها. ولكن فضل الله على هذا الإنسان ونفخته فيه من روحه، وتكريمه له على كثير من خلقه.. هذا الفضل وحده قد اقتضى أن يكون لهذا المخلوق وزن في نظام الكون وحساب، وأن يهيئ الله له القدرة على استخدام الكثير من طاقات هذا الكون وقواه، ومن ذخائره وخيراته.

إن خلق السماوات والأرض معناه إنشاء هذا الخلق الهائل الضخم العظيم الدقيق الذي لا نعرف عنه إلا أقل من القليل، هذا الحشد الذي لا يحصى من الأفلاك والمدارات والنجوم والكواكب والسّدم والمجرات.

تلك التي لا تزيد أرضنا الصغيرة عن أن تكون ذرة تائهة بينها تكاد أن تكون لا وزن لها ولا ظل! ومع الضخامة الهائلة ذلك التناسق العجيب بين الأفلاك والمدارات والدورات والحركات وما بينها من مسافات وأبعاد تحفظها من التصادم والخلل والتخلف والاضطراب وتجعل كل شيء في أمرها بمقدار.

ذلك كله من ناحية الحجم العام والنظام، فأما أسرار هذه الخلائق الهائلة وطبائعها وما يستكن فيها وما يظهر عليها والنواميس الكبرى التي تحفظها وتحكمها وتصرفها.. فهذا كله أعظم من أن يلم به الإنسان وما عرف عنه إلا أقل من القليل، ودراسة هذا الكوكب الصغير الضئيل الذي نعيش على سطحه لم يتم منها حتى اليوم إلا القليل!

لا ضيق مع رحمة الله

ما من نعمة - يمسك الله معها رحمته - حتى تنقلب هي بذاتها نقمة، وما من محنة - تحفها رحمة الله - حتى تكون هي بذاتها نعمة.. ينام الإنسان على الشوك - مع رحمة الله - فإذا هو مهاد، وينام على الحرير - وقد أمسكت عنه - فإذا هو شوك القتاد، ويعالج أعسر الأمور - برحمة الله - فإذا هي هوادة ويسر، ويعالج أيسر الأمور - وقد تخلت رحمة الله - فإذا هي مشقة وعسر، ويخوض بها المخاوف والأخطار فإذا هي أمن وسلام، ويعبر بدونها المناهج والمسالك فإذا هي مهلكة وبوار! ولا ضيق مع رحمة الله. إنما الضيق في إمساكها دون سواه. لا ضيق ولو كان صاحبها في غياهب السجن، أو في جحيم العذاب أو في شعاب الهلاك. ولا سعة مع إمساكها ولو تقلب الإنسان في أعطاف النعيم، وفي مراتع الرخاء.

***

من رحمة الله أن تحس برحمة

فرحمة الله تضمّك وتغمرك وتفيض عليك، ولكن شعورك بوجودها هو الرحمة، ورجاؤك فيها وتطلعك إليها هو الرحمة. وثقتك بها وتوقعها في كل أمر هو الرحمة، والعذاب هو العذاب في احتجابك عنها أو يأسك منها أو شكك فيها. وهو عذاب لا يصبه الله على مؤمن أبدا. ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ الله إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧].

* * *

مفتاح الشر

﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً﴾ [فاطر:٨].. هذا هو مفتاح الشر كله.. أن يزين الشيطان للإنسان سوء عمله فيراه حسنا! أن يعجب بنفسه وبكل ما يصدر عنها! ألا يفتش في عمله ليرى مواضع الخطأ والنقص فيه، لأنه واثق من أنه لا يخطئ! متأكد أنه دائما على صواب! معجب بكل ما يصدر منه! مفتون بكل ما يتعلق بذاته. لا يخطر على باله أن يراجع نفسه في شيء، ولا أن يحاسبها على أمر. وبطبيعة الحال لا يطيق أن يراجعه أحد في عمل يعمله، أو في رأي يراه؛ لأنه حسن في عين نفسه، مزين لنفسه وحسه، لا مجال فيه للنقد، ولا موضع فيه للنقصان!

مدارج العزة

العزة الصحيحة حقيقة تستقر في القلب قبل أن يكون لها مظهر في دنيا الناس، حقيقة تستقر في القلب فيستعلي بها على كل أسباب الذلة والانحناء لغير الله، حقيقة يستعلي بها على نفسه أول ما يستعلي، يستعلي بها على شهواته المذلة، ورغائبه القاهرة، ومخاوفه ومطامعه من الناس وغير الناس، ومتى استعلَ على هذه فلن يملك أحد وسيلة لإذلاله وإخضاعه. فإنما تذل الناس شهواتهم ورغباتهم، ومخاوفهم ومطامعهم...

إنها العزة استعلاء على شهوة النفس، واستعلاء على القيد والذل، واستعلاء على الخضوع الخانع لغير الله، ثم هي خضوع لله وخشوع وخشية لله وتقوى، ومراقبة لله في السراء والضراء.. ومن هذا الخضوع لله ترتفع الجباه، ومن هذه الخشية لله تصمد لكل ما يأباه، ومن هذه المراقبة لله لا تغنى إلا برضاه.

***

ما بين النور والظلام

﴿وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ * وَلا الظُّلُماتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ * وَما يَسْتَوِي الْأَحْياءُ وَلَا الْأَمْواتُ﴾[فاطر:١٩-٢٢]

بين طبيعة الكفر وطبيعة كل من العمى والظلمة والحرور والموت صلة. كما أن هناك صلة بين طبيعة الإيمان وطبيعة كل من النور والبصر والظل والحياة..

إن الإيمان نور، نور في القلب ونور في الجوارح، ونور في الحواس، نور يكشف حقائق الأشياء والقيم والأحداث، وما بينها من ارتباطات ونسب وأبعاد، فالمؤمن ينظر بهذا النور، نور الله، فيرى تلك الحقائق، ويتعامل معها، ولا يخبط في طريقه ولا يلطش في خطواته!

والإيمان بصر، يرى رؤية حقيقية صادقة غير مهزوزة ولا مخلخلة، ويمضي بصاحبه في الطريق على نور وعلى ثقة وفي اطمئنان.

والإيمان ظل ظليل تستروحه النفس ويرتاح له القلب، ظل من هاجرة الشك والقلق والحيرة في التيه المظلم بلا دليل! والإيمان حياة، حياة في القلوب والمشاعر، حياة في القصد والاتجاه، كما أنه حركة بانية مثمرة قاصدة.

لا خمود فيها ولا همود، ولا عبث فيها ولا ضياع، والكفر عمى، عمى في طبيعة القلب، وعمى عن رؤية دلائل الحق، وعمى عن رؤية حقيقة الوجود، وحقيقة الارتباطات فيه، وحقيقة القيم والأشخاص والأحداث والأشياء، والكفر ظلمة أو ظلمات، فعند ما يبعد الناس عن نور الإيمان يقعون في ظلمات من شتى الأنواع والأشكال. ظلمات تعز فيها الرؤية الصحيحة لشيء من الأشياء.

والكفر هاجرة حرور، تلفح القلب فيه لوافح الحيرة والقلق وعدم الاستقرار على هدف، وعدم الاطمئنان إلى نشأة أو مصير، ثم تنتهي إلى حر جهنم ولفحة العذاب هناك! والكفر موت، موت في الضمير، وانقطاع عن مصدر الحياة الأصيل، وانفصال عن الطريق الواصل.

وعجز عن الانفعال والاستجابة الآخذين من النبع الحقيقي، المؤثرين في سير الحياة! ولكل طبيعته ولكل جزاؤه، ولن يستوي عند الله هذا وذاك.

* * *

السكتة القلبية

الغفلة أشد ما يفسد القلوب، فالقلب الغافل قلب معطل عن وظيفته، معطل عن الالتقاط والتأثر والاستجابة، تمر به دلائل الهدى أو يمر بها دون أن يحسها أو يدركها، ودون أن ينبض أو يستقبل، ومن ثم كان الإنذار هو أليق شيء بالغفلة التي كان فيها القوم، الذين مضت الأجيال دون أن ينذرهم منذر، أو ينبههم منبه.

***

إبداع الخالق سبحانه

الحياة معجزة لا تملك يد البشر أن تجريها إنما هي يد الله التي تجري المعجزات، وتبث روح الحياة في الموات.

وإن رؤية الزرع النامي، والجنان الوارفة، والثمر اليانع، لتفتح العين والقلب على يد الله المبدعة، وهي تشق التربة عن النبتة المتطلعة للحرية والنور، وتنضر العود المستشرف للشمس والضياء، وتزين الغصن اللدن بالورق والثمار، وتفتح الزهرة وتنضج الثمرة، وتهيئها للجني والقطاف.

***

ليلة قمرية

الحياة مع القمر ليلة بعد ليلة تثير في الحس مشاعر وخواطر ندية ثرية موحية عميقة، والقلب البشري الذي يعيش مع القمر دورة كاملة، لا ينجو من تأثرات واستجابات، ومن سبحات مع اليد المبدعة للجمال والجلال المدبرة للأجرام بذلك النظام، سواء كان يعلم سر هذه المنازل والأشكال القمرية المختلفة أو لا يعلم.

فالمشاهدة وحدها كفيلة بتحريك القلب، واستجاشة الشعور، وإثارة التدبر والتفكير. ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ [الدخان:٢٩]

تعبير يلقي ظلال الهوان، كما يلقي ظلال الجفاء.. فهؤلاء الطغاة المتعالون لم يشعر بهم أحد في أرض ولا سماء، ولم يأسف عليهم أحد في أرض ولا سماء... ذهبوا غير مأسوف عليهم فهذا الكون يمقتهم لانفصالهم عنه، وهو مؤمن بربه، وهم به كافرون! وهم أرواح خبيثة شريرة منبوذة من هذا الوجود وهي تعيش فيه!

ولو أحس الجبارون في الأرض ما في هذه الكلمات من إيحاء لأدركوا هوانهم على الله وعلى هذا الوجود كله. ولأدركوا أنهم يعيشون في الكون منبوذين منه، مقطوعين عنه، لا تربطهم به آصرة، وقد قطعت آصرة الإيمان.

قيمة الإيمان

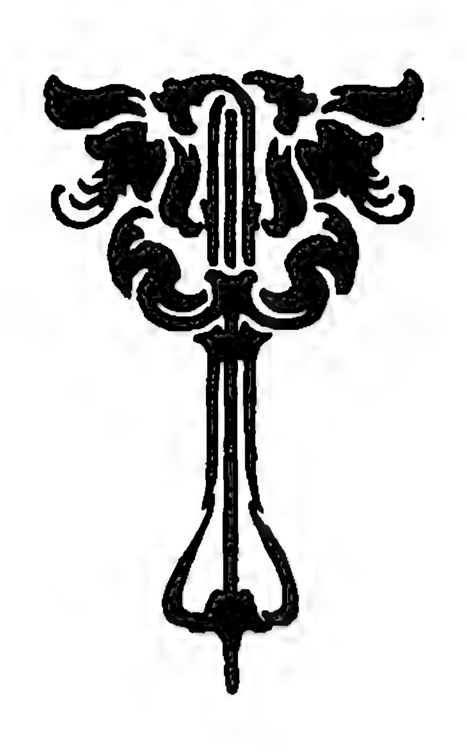
من طريق الإيمان بالله ينشأ إدراك لحقيقة هذا الوجود، وأنه من صنع الله وبعد إدراك هذه الحقيقة يستطيع الإنسان أن يتعامل مع الكون وهو يعرف طبيعته كما يعرف قوانينه التي تحكمه. ومن ثم ينسق حركته هو مع حركة هذا الوجود الكبير، ولا ينحرف عن النواميس الكلية، فيسعد بهذا التناسق، ويمضي مع الوجود كله إلى بارئ الوجود في طاعة واستسلام وسلام... وقيمة الإيمان كذلك الطمأنينة النفسية، والثقة بالطريق، وعدم الحيرة أو التردد، أو الخوف أو اليأس.

﴿اللهُ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا، وَأَنَّ الْكافِرِينَ لا مَوْلى لَهُمْ﴾ [محمد:١١]

من كان الله مولاه وناصره فحسبه، وفيه الكفاية والغناء وكل ما قد يصيبه إنما هو ابتلاء وراءه الخير، لا تخليا من الله عن ولايته له، ولا تخلفا لوعد الله بنصر من يتولاهم من عباده.

ومن لم يكن الله مولاه فلا مولى له، ولو اتخذ الإنس والجن كلهم أولياء. فهو في النهاية مضيع عاجز ولو تجمعت له كل أسباب الحماية وكل أسباب القوة التي يعرفها الناس!

الخاتمة



ما من مرة وقفت أمام آية تذكر الوحي أو حديث، لأتأمل هذا الاتصال إلا أحسست له رجفة في أوصالي.. كيف؟ كيف يكون هذا الاتصال بين الذات الأزلية الأبدية التي ليس لها حيز في المكان ولا حيز في الزمان، المحيطة بكل شيء، والتي ليس كمثلها شيء. كيف يكون هذا الاتصال بين هذه الذات العلية وذات إنسان متحيزة في المكان والزمان، محدودة بحدود المخلوقات، من أبناء الفناء؟! ثم كيف يتمثل هذا الاتصال معاني وكلمات وعبارات؟

وكيف تطيق ذات محدودة فانية أن تتلقى كلام الله الأزلي الأبدي الذي لا حيز له ولا حدود؟ ولا شكل له معهود؟ وكيف؟ وكيف؟..

ولكني أعود فأقول:

وما لك تسأل عن كيف؟

وأنت لا تملك أن تتصور إلا في حدود ذاتك المتحيزة القاصرة الفانية؟!

لقد وقعت هذه الحقيقة وتمثلت في صورة، وصار لها وجود هو الذي تملك أن تدركه من وجود.

ولكن الوهلة والرجفة والروعة لا تزول! إن النبوة هذه أمر عظيم حقا. وإن لحظة التلقي هذه لعظيمة حقا، تلقي الذات الإنسانية لوحي من الذات العلوية..

أخي الذي تقرأ هذه الكلمات،

أأنت معي في هذا التصور؟!

أأنت معي تحاول أن تتصور؟!

هذا الوحي الصادر من هناك.

أأقول: هناك؟! كلا، إنه ليس هناك «هناك»! الصادر من غير مكان ولا زمان، ولا حيز ولا حد ولا جهة ولا ظرف، الصادر من المطلق النهائي، الأزلي الأبدي، الصادر من الله ذي الجلال إلى إنسان.. إنسان مهما يكن نبيًا رسولًا، فإنه هو هذا الإنسان ذو الحدود والقيود.. هذا الوحي، هذا الاتصال العجيب المعجز، الذي لا يملك إلا الله أن يجعله واقعة تتحقق، ولا يعرف إلا الله كيف يقع ويتحقق.. أخي الذي تقرأ هذه الكلمات، هل تحس ما أحس من وراء هذه العبارات المتقطعة

التي أحاول أن أنقل بها ما يخالج كياني كله؟ إنني لا أعرف ماذا أقول عما يخالج كياني كله من الروعة والرجفة وأنا أحاول أن أتصور ذلك الحدث العظيم العجيب الخارق في طبيعته، والخارق في صورته، الذي حدث مرات ومرات، وأحس بحدوثه ناس رأوا مظاهره رأي العين، على عهد رسول الله.

* * *

الفهرس